

سُورَةُ الْإِنْفِطَارِ

حِينَ تَنْشَقُّ السَّمَاءُ وَيَنْكَشِفُ الْإِنْسَانُ

تَأْلِيفُ: رَدَادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

حِينَ تَنْشَقُّ السَّمَاءُ وَيَنْكَشِفُ الْاِنْسَانُ

تأليف: رَدَّاد السَّلَامِيُّ

السُّورَةُ الَّتِي تَنْقُلُ الْإِنْسَانَ مِنْ غَفْلَةِ الصُّورَةِ إِلَى حَقِيقَةِ الْمَصِيرِ

ليست سورة الانفطار وصفًا لنهاية العالم فحسب، بل هي كشفٌ عن حقيقة العالم منذ بدايته؛ لأن الكون الذي نراه متماسكًا في ظاهره، ممدودًا فوقنا في سكونه المهيّب، وموزعًا حولنا في بحاره وقبوره ونجومه، ليس قائمًا بقوته، ولا محفوظًا بذاته، ولا خالدًا في صورته، وإنما تمسكه كلمة الله، وتحفظه إرادته، ويستمر ما دام الأجل الذي قدره له لم يبلغ منتهاه. فإذا جاءت الساعة لم يحتج هذا البناء العظيم إلى جيشٍ يهدمه، ولا إلى قوةٍ تنازعه تماسكه؛ بل يكفي أن يُرفع عنه الإذن الذي أبقاه، فإذا السماء التي طالما ظلّت الإنسان تنفطر، وإذا الكواكب التي اهتدى بها في ظلمات البر والبحر تنتثر، وإذا البحار التي حسبها محكومة بشواطئها تفجّر، وإذا القبور التي توهّمها أبوابًا للفناء تُبعثر لتردّ إلى الوجود أجسادًا أكلها التراب ولم يغب منها شيء عن علم الله.

تبدأ السورة بانفطار السماء، ولكنها تريد - في عمق خطابها - أن تُحدث انفطاراً آخر في قلب الإنسان؛ أن تشقّ قشرة الغفلة التي تراكت فوق بصيرته حتى صار يرى كل شيء ولا يرى المصير، ويحسب حساب كلِّ غدٍ إلا الغد الذي يقف فيه بين يدي الله. إن السماء في مطلع السورة لا تنفطر وحدها، بل ينفطر معها وهم الاستقرار الدنيوي، وينشقّ ذلك الإحساس الخادع بأن الأشياء ستظل في مواضعها، وأن الزمن سيمضي دائماً على النحو الذي ألفناه، وأن الموت حادثة تقع للآخرين ثم تنتهي عند حدود قبورهم. وسرعان ما تنتقل السورة من

اضطراب الكون إلى انكشاف النفس: ﴿عَلَيْتَ نَفْسٌ مَا قَدَمْتَ وَأَخَّرْتَ﴾؛ فكأن انقلاب العالم كله ليس إلا تمهيداً للحظة التي يلتقي فيها الإنسان بعمله، ويرى أن ما فعله في الخفاء لم يختفِ، وأن ما نسيه لم يُنس، وأن الآثار التي خلفها وراءه كانت تسير في الزمن حتى وصلت إلى موقف الحساب.

والسورة، على قصر آياتها، تبنى مشهداً كاملاً لعقيدة الجزاء: تبدأ بالكون حين تنخل روابطه، ثم تنتقل إلى النفس حين تستعيد ذاكرتها الأخلاقية كاملة، ثم تواجه الإنسان بالسؤال الذي يخترق دفاعاته كلها: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾. وهذا ليس سؤالاً يطلب معلومة، وإنما محاكمةً للغفلة، واستدعاءً للضمير، وهدمٌ لكل عذرٍ احتمى به الإنسان بعيداً عن ربه. فالذي عصاه الإنسان ليس رباً مجهولاً عنده، بل هو ربه؛ والذي اغترَّب بحلمه ليس شديداً عجولاً في المؤاخذه، بل هو الكريم؛ والذي أعرض عنه ليس من حرمة الوجود، بل الذي خلقه فسوّاه فعلده، ورَّكبه في أي صورة شاء. ومن هنا تبلغ المفارقة القرآنية غايتها: كيف تتحول النعمة إلى حجاب، والمهلة إلى جراءة، والكرم إلى ذريعة للعصيان؟ وكيف يقرأ الإنسان آثار العناية في جسده ثم يعيش كأن لا مُنعم وراءها، ولا حكمة تحكمها، ولا عودة بعدها؟

إن قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ من أكثر الأسئلة القرآنية قدرةً على تعرية الإنسان أمام نفسه؛ لأنه لا يسأله: ما الذي منعك من معرفة الله؟ بل: ما الذي خدعك حتى أسأت التعامل مع مَنْ لم تَرَمْنِه إلا الخلق والتسوية والعدل والكرم؟ إن المعصية هنا لا تظهر بوصفها مخالفةً مجرّدة لأمر، وإنما بوصفها اختلالاً في الوعي، وانقلاباً في معنى العلاقة بين العبد وربّه؛ فالإنسان يأكل من رزق الله، ويتقلب في ستره، ويحيا بقوته، ثم يجعل من

امتداد النعمة دليلاً على إمكان الاستمرار في البعد. إنه لا ينكر الكرم، ولكنه يسيء فهمه، ولا يغيب عنه الحلم، ولكنه يحولُه من بابٍ للتوبة إلى ستارٍ للتمادي.

ثم تكشف السورة أن أصل الداء أعمق من زلَّةٍ عابرة، أو شهوة طارئة: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالْبَيِّنَاتِ﴾. إنه ضعف استحضر الجزاء؛ فحين ييهت اليوم الآخر في القلب، تمتد الدنيا حتى تحتلَّ مساحة الوجود كلّها، ويغدو النجاح هو ما تحقَّق هنا، والخسارة هي ما فات هنا، والعدل هو ما رآه الإنسان بعينه في أيامه المحدودة. وعندئذٍ يختلُّ الميزان؛ لأن النفس التي لا ترى وراء اللحظة محكمة، ولا وراء التراب بعثاً، ولا وراء العمل جزاءً، يسهل عليها أن تسام، وأن تخفي، وأن تزيّن لنفسها ما تعلم في أعماقها أنه لا يليق.

ولهذا لا تكتفي السورة بإثبات الحساب، بل تُثبت دقة الطريق إليه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۖ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾. فالإنسان ليس متروكاً في عتمَةٍ لا يشهدها أحد، ولا تضيع أعماله في زحام الأيام، ولا تتساقط كلماته من ذاكرة الوجود؛ بل عليه حفظةٌ كرام، لا يظلمون، ولا يحرفون، ولا يكتبون وفق هوى، وإنما يحفظون من حياته ما سيقروه يوم لا يستطيع أن يضيف إلى صحيفته حسنةً واحدة، ولا أن يحو منها سيئةً واحدة. وإن وصف الملائكة بالكرام يضع الإنسان أمام حياته الأخلاقي أيضاً: فذنبه الذي استهان به لم يقع في غيبةٍ مطلقة، وإنما كُتب بأيدٍ كريمة، وشهدته مخلوقاتٌ طاهرة، وسيعرض على ربِّ لا تخفى عليه خافية.

وتفصل السورة بعد ذلك بين المصائر فصلاً حاسماً: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾. ﴿وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾. إنها لا تقول إنهم سيبلغون النعيم أو الجحيم فحسب، بل تأتي بالتعبير الذي يُشعر بأن البر والفجور طريقان يحمل كلُّ منهما مصيره في داخله؛ فالبرُّ بداية النعيم وإن أحاطت

بصاحبه مشقة الدنيا، والفجور بداية الجحيم وإن غطّته لذّة عابرة. وليس الجزاء غريباً عن العمل، بل هو ظهوره الكامل حين تسقط الأفعّة؛ فما كان في القلب هنا يصير عالماً يحيط بصاحبه هناك، وما اختاره الإنسان سرّاً يتحول إلى مقام خالد لا يستطيع الفرار منه.

ويبلغ المشهد ذروته بتكرار السؤال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ثمّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ؛ ليستقر في الوجدان أن ذلك اليوم أكبر من قدرة الخيال على الإحاطة به. وما يصلنا من خبره حقٌّ ثابت، ولكن هوله يتجاوز ما تستطيع اللغة البشرية أن تحتويه، وما يمكن للذهن المقيم في قوانين الدنيا أن يتصوره. ثم تأتي الآية الأخيرة فتسحب من الإنسان آخر ما كان يتكئ عليه من أوهام القوة والملكية والاستقلال: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾. وليس معنى ذلك أن الأمر لم يكن لله قبل ذلك اليوم؛ بل كان له وحده دائماً، غير أن الدنيا كانت موطن الأستار والأسباب والادعاءات، أما يوم الدين فتسقط كل يد زعمت الملك، وكل قوة توهّمت الاستقلال، ويظهر سلطان الله الذي لم يغب قط، وإنما غابت عنه بصائر المغترين.

وسيقوم منهج هذا الكتاب على مرافقة السورة آيةً آية، مع النظر إليها بوصفها بناءً واحداً تتصل بدايته بنهايته: فانفطار السماء في المطلع يقابله انكشاف السلطان الإلهي في الختام، وانتثار الكواكب يقابله سقوط أوهام الإنسان، وتفجير البحار يقابله تفجير الذاكرة الأخلاقية، وبعثرة القبور يقابلها بعثرة الأسرار المطوية في صحائف الأعمال. وسنبداً من الدلالة اللغوية والسياق القرآني والنظم الذي يربط الآيات، ثم نعبر منه إلى التأمل الإيماني والفكري والإنساني، من غير أن نحمل النص ما لا يحتمل، أو نفصل الإشراق الأدبي عن هداية الوحي، أو نحول التدبر إلى خيالٍ لا تضبطه حقيقة الآية.

لسنا هنا بإزاء مشاهد كونية بعيدة عن واقعنا، بل أمام سورةٍ تريد أن تعيد ترتيب حياتنا قبل أن يختلَّ ترتيب الكون. إنها لا تخبرنا كيف سينتهي العالم لتشيح فضولنا عن المستقبل، وإنما لتسألنا: كيف نعيش الآن في عالمٍ سينتهي؟ وما قيمة الصورة حين تزول؟ وما وزن العمل حين يبقى؟ وما حقيقة الأمان إذا كان كل ما حولنا مؤجلاً للانفطار، وكل ما في أيدينا مؤجلاً الانتزاع، وكل ما نفعله محفوظاً ليعود إلينا؟

سورة الانفطار رحلةٌ من السماء المتصدعة إلى القلب المنكشف، ومن القبور المبعثرة إلى الصحائف المنشورة، ومن كرم الله الذي اغترَّبه الإنسان إلى حكم الله الذي لا يملك عند ظهوره أحدٌ لأحد شيئاً. إنها توقظ في النفس ذلك اليقين الذي يردُّ الأشياء إلى مقاديرها: فلا الكون دائم، ولا الجسد مهمل، ولا العمل ضائع، ولا الإمهال نسيان، ولا الكرم عجزٌ عن المؤاخذه، ولا الموت خاتمة الحكاية.

إنها سورة اللحظة التي ينفطر فيها كلُّ غطاء، فلا يبقى للإنسان إلا ما قدَّم، ولا يتبعه إلا ما أخر، ولا يقف بينه وبين الحقيقة عذرٌ أو ستار. وحين تُقرأ بهذا الوعي، لا تعود آياتها الثماني عشرة حديثاً عمّا سيحدث في آخر الزمان فحسب، بل تصبح نوراً يكشف ما يحدث الآن في أعماقنا: كيف نغتر، وكيف ننسى، وكيف تُكتب خطانا، وكيف نصنع - في كل يوم - المصير الذي سنلقاه حين ينشقُّ سقف العالم، ويقف الإنسان وحيداً تحت سماء الحقيقة.

حِينَ يَنْفَرُ عِقْدُ الْعَالَمِ وَتَسْتَقِظُ ذَاكِرَةُ الْإِنْسَانِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾

تبدأ السورة بـ ﴿إِذَا﴾، فتفتح أمام الوعي باباً على لحظة آتية، ليست احتمالاً قد يقع أو لا يقع، وإنما وعدٌ إلهيٌّ محكمٌ؛ غير أن القرآن يعرض المستقبل بوضوح الحقيقة الحاضرة، حتى ليشعر القارئ أن السماء تنفطر الآن فوق بصيرته، وأن المشهد الموعود قد خرج من غيب الزمن وصار قائماً أمام القلب. نخبّر الله لا ينتظر وقوع الحادثة حتى يكتسب يقينه؛ إذ يكفي أن الله أخبر به ليصبح في ميزان الإيمان واقعاً لا يتطرق إليه التردد، وإن كانت العين لم تشهده بعد.

والسما أول ما يواجه الإنسان حين يرفع رأسه، وأوسع ما يحيط ببصره، وأشد مظاهر الكون إichاءً بالتماسك والثبات؛ فهي سقفٌ مرفوع لا يرى فيه الناظر شقوقاً ولا اضطراباً، وتتابع الشمس والقمر والنجوم في رحابها بنظامٍ يبعث في النفس معنى الدوام. غير أن السورة تبدأ من النقطة التي ينتهي فيها هذا الشعور؛ فالسما التي حسبها الإنسان عنوان الاستقرار ستنفطر، والبناء الذي بدا عصياً على التصدع سيفتح بأمر الله، ليعلن أول مشهدٍ من مشاهد القيامة أن ما ظنناه ثابتاً لم يكن ثابتاً بذاته، وإنما كان محمولاً بقدره الله إلى الأجل الذي سماءه.

والانفطار ليس مجرد شقٍّ في جرم السماء، بل هو انهيارٌ لمعنى الأمان الذي أقامه الإنسان على دوام العالم؛ فكل فلسفةٍ جعلت المادة أصلاً أبدياً، وكل نفسٍ تعاملت مع الحياة كأنها وطنها النهائي، وكل قلبٍ استبعد الآخرة لأن نظام الكون يبدو راسخاً، يجد نفسه أمام هذه الكلمة الواحدة: ﴿انْفَطَرَتْ﴾. إنها كلمة قصيرة، ولكنها تشقُّ في الوعي جدراً عظيماً؛ إذ تقول إن أقوى ما تبصره العين قابلٌ للانفلاق، وإن أعظم الأبنية الكونية ليس مستقلاً عن أمر خالقه، وإن دوام الشيء في عمر الإنسان لا يعني خلوده في قدر الله.

ولعل في اختيار السماء لتكون أول ما ينفطر تربيةً للإنسان على أن يبدأ مراجعة يقينه من أعلى ما يراه وأبعده؛ فإذا كان هذا السقف الهائل الذي لم تبلغ إليه يده سيزول، فكيف يطمئن إلى بيتٍ بناه، أو منصّبٍ بلغه، أو جسدٍ يسكنه، أو مالٍ جمعه؟ وإذا كان ما يبدو أبعد الأشياء عن الفناء محكوماً بالفناء، فإن ما دونه أولى ألا يُتخذ إلهاً صغيراً في القلب، ولا يُمنح من الرجاء والخوف ما لا ينبغي أن يُمنح إلا لله.

إن السماء في الدنيا تحجب عن أبصارنا كثيراً من عوالم الغيب؛ نراها زرقاء ساكنة، فيما الإيمان يخبرنا أن وراء هذا المنظور خلقاً وأمرًا وملائكةً وملكوّاً لا تحيط به حواسنا. فإذا انفطرت يوم القيامة، لم ينشق جرمٌ فحسب، بل انشقّ الحجاب بين الإنسان والحقيقة؛ وسقط ذلك النظام الذي سمح له أن يعيش مختاراً بين الإيمان بالغيب وإنكاره، وبدأ زمن المشاهدة التي لا ينفع معها إيمانٌ مستأنف؛ لأن الامتحان ينتهي حين تصبح الحقيقة رأي العين.

ومن هنا تتجاوز الآية وصف الكون إلى خطاب القلب: كما أن للسماء انفطاراً في آخر العالم، فإن للقلب انفطاراً في أثناء العمر؛ لحظة تنشق فيها قشرة الاعتقاد، ويرى الإنسان هشاشة ما كان يظنه راسخاً، ويدرك أن السنوات لم تكن ملكاً له، وأن الأشياء التي أقام عليها طمأنينته

يمكن أن تغادره في طرفة عين. وقد يفتح الله في حياة العبد نافذةً من الفقد أو المرض أو الانكسار، لا ليُفنيه بها، ولكن ليُنقذه من عبادة الثبات الوهمي، ويعيده إلى الثابت الوحيد الذي لا يتغير ولا يزول.

غير أن هذا التأمل لا يعني أن كل انكسارٍ دنيوي هو المقصود المباشر بالآية؛ فالآية تتحدث أولاً عن انفطار السماء حقيقةً يوم القيامة، ثم تفيض دلالتها الإيمانية على القلب، فتعلّمه أن يعيش في ظل هذا اليقين. وتلك هي أمانة التدبر: أن تبقى داخل نور النص، لا أن نستبدل بحقيقته رمزاً، وأن نعبر من المشهد الأخروي إلى أثره التربوي من غير أن نذيب الغيب في المجاز.

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾

بعد انفطار السماء يأتي انتشار الكواكب؛ فالسقف ينشق، والمصابيح التي تزيّنه تنساقط وينفطر نظامها. ولفظة ﴿انْتَثَرَتْ﴾ تستدعي صورة العقد حين ينقطع سلكه، فتندرج جباته في جهاتٍ شتى، بعد أن كان يجمعها نظامٌ واحد. وهكذا كانت الكواكب ثابتةً في مواقعها، مرتبطةً بأقذارها، تجري في أفلاكها لا يتقدم منها شيء ولا يتأخر إلا بحساب؛ فإذا جاء الأمر الأخير، انفكّ ذلك العقد الكوني، وانتثرت الأجرام التي بدت للإنسان طوال تاريخه رموزاً للهداية والثبات والجمال.

لقد رفع الإنسان بصره إلى النجوم منذ بدأ وعيه بالعالم، فاهتدى بها إلى الطرق، وقاس بها الأزمنة، وبنى حولها الحكايات، وربما ضلّ فعبدها أو توهّم أنها تنصرف في مصيره. فجاء القرآن يردها إلى حقيقتها: آياتٌ مخلوقة، جميلة ولكنها ليست آلهة، عظيمة ولكنها ليست

مستقلة، تهدي المسافر بإذن الله ولا تملك هداية الروح، وتدل على الطريق في ظلمات الأرض ولا تستطيع أن تنقذ نفسها حين يأتيها أمر التبدل والانتثار.

إن الكواكب لا تخرج في الدنيا عن قانونها، أما الإنسان فيملك في مساحة التكليف أن يخرج عن قانون العبودية؛ فالمخلوقات الهائلة تسبح في أفلاك الطاعة، بينما يجرؤ الكائن الصغير على أن يعصي، وينسب إلى نفسه الاستقلال، ويتصرف كأنه خارج سلطان الله. وحين تنتثر الكواكب، ينكشف التناقض الموضع: تلك الأجرام التي تفوق الإنسان حجماً وقوة لم تزعم لنفسها ربوبية ولا خلوداً، بينما غرَّ الإنسان شيء من مالٍ أو سلطان، فتوهم أن ما بين يديه يخرج من حد العبودية.

وإذا كان انتثار الكواكب سقوطاً للنظام الذي اعتاده الإنسان، فهو كذلك سقوطٌ للزينة التي شغلته عن الحقيقة؛ فقد يتأمل المرء جمال العالم ولا يعبر منه إلى جلال خالقه، وينبهر بالضوء ولا يهتدي إلى مصدر النعمة، ويقف طويلاً عند الآلة ثم لا يصل إلى من نصبها له. ويوم القيامة تُنزع الزينة، فلا يبقى للإنسان كونه يفتنه عن الله، ولا مشهدٌ يستغرقه عن المصير، ولا ضوءٌ مستعارٌ يوهمه أنه مستغنٍ عن نور الهداية.

وتعلمنا الآلة أن النظام نعمةٌ قد لا نشعر بها إلا حين نخيل زواله. إن ثبات مواقع النجوم، وتعاقب الليل والنهار، وانتظام الأفلاك، ليست أموراً آليّةً تجري لأنها لا تستطيع إلا أن تجري؛ بل هي آثارٌ تدير متصل، وسنُّ أقامها الله برحمته، ولو شاء أن تنفطر قبل أجلها لانفطرت. وما نسميه «قوانين الكون» ليس قوةٌ تقف إلى جانب إرادة الله أو فوقها، وإنما هو وصفٌ لما أجرى الله عليه خلقه؛ فإذا شاء تبديل السنن في اليوم الآخر، لم يكن ذلك عجزاً طرأ على النظام، بل كان ظهوراً لافتقار النظام منذ بدايته إلى أمر الله.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ جُفِرَتْ﴾

ثم تهبط بنا السورة من السماء وكواكبها إلى الأرض وبحارها، فكأن الاضطراب قد استوعب جهتي الوجود اللتين يراهما الإنسان: ما فوقه وما حوله. والبحار في الدنيا عوالمٌ تفصل بينها الياسة وتحجزها الشواطئ، ولكل بحرٍ حدوده ومساره وخصائصه؛ لكن تلك الحدود التي ظلها الإنسان جزءاً ثابتاً من طبيعة الأشياء تزول، فتفجّر البحار، وتفتح بعضها في بعض، وتندفع مياهها اندفاعاً يفارق المألوف الذي عرفناه.

والنفجير في أصل دلالة فتحٍ وشقٍّ وإطلاقٍ لما كان محجوزاً؛ وكأن البحار تحمل في أعماقها قوة هائلةً أمسكتها الحدود التي قدّرها الله، فإذا انتهى زمن الإمساك خرجت من أسرها، واختلط ما كان مفصولاً، واضطرب ما كان مستقراً. وحينئذٍ يدرك الإنسان أن الشواطئ لم تكن أقوى من الماء، وإنما كانت مأمورةً أن تحجزه، وأن البحر لم يكن هادئاً بقوته الذاتية، وإنما سكن في الحد الذي رسمه الله له.

وفي الآية معنى دقيق يتصل بحقيقة الحدود في حياتنا؛ فنحن نعيش لأن الله أقام بين الأشياء فواصل تحفظ وجودها: بين البحر والياسة حد، وبين الروح والجسد ارتباط مقدّر، وبين الحياة والموت أجل، وبين عالم الشهادة وعالم الغيب حجاب، وبين الناس حقوق تمنع بعضهم من ابتلاع بعض. فإذا انهارت الحدود الكونية يوم القيامة، ظهر مقدار الرحمة التي كانت في إقامتها؛ فليس النظام مجرد هندسة صامتة، بل هو لطفٌ إلهيٌ واسع، يحفظ الوجود من أن تتقلب قواه بعضها على بعض.

وكم يشبه القلب بحراً محجوزاً وراء شواطئ ظاهرة؛ يحمل الإنسان في باطنه ذكرياتٍ لا يبوح بها، ومخاوف لا يراها الناس، ونوايا يؤجل كشفها، ورغبات يحبسها عن العيون. لكنه يوم

القيامة لا يبقى مستوراً وراء ساحله؛ فما تُفجّر البحار في الخارج إلا ويقابلها انكشاف ما في الصدور، وما تزول الحدود بين المياه إلا وتزول الحدود بين ظاهر الإنسان وباطنه. هناك يصبح السر علانيةً، وتتحول النية إلى حقيقة مشهودة، ويعرف المرء أن الله الذي أحاط بما في أعماق البحار قد أحاط كذلك بما في أعماق الضمير.

وليس المقصود أن الآية رمزٌ للنفس، بل إن البحار ستُفجّر حقيقةً كما أخبر الله، غير أن هذا الانقلاب المحسوس يوقظنا إلى انقلاب أخلاقي مواز: كل ما حسبناه محتبئاً سيخرج، وكل ما ظنناه محجوراً سيطلق، وكل باطنٍ عاش طويلاً وراء ستائر الظاهر سيقف عارياً أمام علم الله وعدله.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾

بعد السماء والكواكب والبحار تصل الحركة إلى القبور؛ إلى ذلك الموضع الذي وضع فيه الإنسان موته ثم عاد إلى حياته، كأنه أغلق وراءهم باباً لن يُفتح. واختيار لفظ ﴿بُعِثَتْ﴾ يرسم صورةً تجمع بين التقلب والإخراج والكشف؛ فالقبور لا تفتح فتحاً هادئاً، وإنما تُثار ويُخرج ما فيها، وينهض المدفونون من مرقدهم الطويل إلى اليوم الذي كانوا يوعدون.

والقبر في وعي الإنسان حدٌّ يفصل عالم الأحياء عن عالم الموتى؛ فإذا وارى جسداً في التراب، خيّل إليه أن قصته قد انتهت، وأن الأرض ابتلعه إلى غير رجعة. غير أن السورة لا ترى القبر خاتمةً، بل وعاءً مؤقتاً؛ ولا ترى التراب قادراً على تبديد الإنسان بعيداً عن قدرة خالقه، بل تراه مكاناً يحفظ الله فيه ما شاء إلى ميقات البعث. فالذي أنشأ الإنسان أول مرة لا يعجزه أن يعيده، والذي جمعه من عناصر الأرض قادراً على استنقاذه منها، وإن تفرقت أجزاؤه وغابت عن أعين الخلق.

إن بعثرة القبور تُبطل أقدم أوْهام الإنسان: أن الموت يستطيع أن يحميه من عاقبة ما صنع. فكثيرٌ من الظالمين يغادرون الدنيا قبل أن تمتد إليهم يد العدالة، وكثيرٌ من المظلومين ينزلون قبورهم وفي صدورهم حقوقٌ لم تُردِّ، ودموعٌ لم يرها أحد، وجراحٌ لم يُصْفها التاريخ. ولو كانت القبور نهايةً لكان في بنية الوجود نقصٌ أخلاقي مروع؛ إذ يستوي في التراب قاتلٌ وقتيلٌ، وغادرٌ ووفى، ومفسدٌ وصالح، وتنتهي الحكاية قبل أن يكتمل معناها. لكن القبور تُبْعثر كي يقوم الميزان، ويخرج الجميع إلى ساحةٍ لا تضيع فيها مظلمة، ولا يملك فيها القوي أن يكتب الرواية على هواه.

ويحمل هذا المشهد عزاءً عظيمًا لكل من مات وفي قلبه حق، وإنذارًا عظيمًا لكل من ظن أن موت الشهود قد أَمات الحقيقة. فالله لا يحتاج إلى ذاكرة المؤرخين ليحفظ الوقائع، ولا إلى وثائق البشر ليقيم الحجة، ولا يضيع عنده صوتٌ خنقته القوة في الدنيا. إن القبر قد يسكت اللسان، لكنه لا يغلق القضية؛ وقد يخفي الجسد، لكنه لا يحو العمل؛ وقد ينهي قدرة الإنسان على الدفاع عن نفسه، لكنه ينقله إلى عدالة من يعلم السر وأخفى.

وفي ترتيب هذه المشاهد دقةٌ بديعة: تنفطر السماء فوق الإنسان، وتنتثر الكواكب في أرجائها، وتنفجر البحار حول أرضه، ثم تُبعثر القبور من تحته؛ فلا يبقى مكانٌ يلوذ به، ولا جهةٌ يفر إليها، ولا نظامٌ قديمٌ يحتمي وراءه. إن العالم الذي كان مسرح اختباره قد أغلق، وكل ما فيه يتحول ليقوده إلى النتيجة، حتى التراب الذي ضمَّ جسده يعيده إلى موقفه الأخير.

﴿عَلَيْتَ نَفْسٌ مَا قَدَمْتَ وَأَخَّرْتَ﴾

هنا تنتهي سلسلة الشروط وتأتي الحقيقة التي كانت المشاهد كلها تمهد لها. فالسماء انفطرت، والكواكب انثرت، والبحار جُفرت، والقبور بُعِثت؛ والغاية أن تقف كل نفسٍ أمام حصيلة وجودها: ﴿عَلَيْتَ نَفْسٌ مَا قَدَمْتَ وَأَخَّرْتَ﴾. إن الكون كله يتحرك، لكن مركز المشهد الأخلاقي هو النفس؛ وكأن تلك الانقلابات العظمى ليست أضخم - في ميزان المسؤولية - من لحظة معرفة الإنسان بما صنع.

وجاءت كلمة ﴿نَفْسٌ﴾ نكرةً لتشمل كل نفس، ولتجعل الخطاب فردياً لا يستطيع أحد أن يذوب فيه داخل الجماعة. فهناك لا يقف الإنسان عضواً في جمهورٍ يختبئ وراءه، ولا ابناً لبيئةٍ يلقي عليها تبعه اختياراته، ولا تابعاً لزعيمٍ يحمله وحده مسؤولية الطريق، بل يقف نفساً منفردةً تعلم ما قَدَمْتَ وأَخَّرْتَ. إن الجماعات التي منحت الفرد في الدنيا شعوراً بالأمان الأخلاقي تنفكك، وتبقى الذات أمام حقيقتها: ماذا آمنت؟ ماذا أردت؟ ماذا قالت؟ ماذا فعلت؟ وماذا تركت وراءها؟

وما قَدَّمه الإنسان هو ما باشره في حياته من خيرٍ أو شر، وما أخره يشمل ما تركه وراءه من آثارٍ تواصل سيرها بعد موته: علماً نافعاً أو ضلالةً منشورة، ولداً صالحاً أو تربيةً فاسدة، كلمةً فتحت طريقاً إلى النور أو شبهةً أظلمت قلوباً، سُنَّةٌ حسنةٌ جرى بها الناس أو باباً من الشر ظل مفتوحاً بعد رحيله. فالإنسان قد يموت، ولكن فعله لا يموت معه دائماً؛ وقد يُغلق دفتر عمره، بينما تبقى هوامشه تُكتب بأيدي الذين تأثروا به.

وهنا تتسع المسؤولية من حدود اللحظة إلى امتداد الأثر؛ فليس السؤال فقط: ماذا فعلت؟ بل: ماذا فعل فعلك بعدك؟ إلى أي القلوب وصل؟ وأي الطرق شق؟ وأي العادات صنع؟

وأيّ الأفكار منحها الحياة؟ إن الكلمة التي يطلقها المرء ربما تغادر ذاكرته، لكنها لا تغادر بالضرورة ذاكرة العالم؛ فقد تستقر في نفسٍ فتُصلحها، أو تسمّمها، ثم تنتقل منها إلى نفوس أخرى، ويظل خيط الأثر ممتدًا حتى يعود إلى صاحبه يوم الحساب.

ولذلك كان من أخطر صور الغرور أن يظن الإنسان أن مسؤوليته تنتهي حين ينتهي فعله المباشر. إن من يزرع في الناس الكراهية قد لا يشهد كل دمٍ سال من البذرة التي غرسها، ومن يعلمهم الرحمة قد لا يرى كل قلبٍ التأم بسبب كلمته، لكن الله يرى السلسلة من أولها إلى آخرها، ويعلم نصيب كل إنسان منها من غير أن يظلم أحداً. وحين تقول السورة: ﴿مَا قَدَمْتُ وَأَخَرْتُ﴾ فإنها تحاصر العمر من جهتيه؛ فلا يضيع ما سبق، ولا ينفصل عنا ما بقي بعدنا.

ولم تقل الآية: «ذُكِّرْتَ نفس»، بل قالت: ﴿عَلِمْتُ نَفْسٌ﴾؛ لأن المعرفة يومئذٍ تبلغ من الوضوح ما لا يدع مجالاً للجدال. في الدنيا يستطيع الإنسان أن يختار لنفسه روايةً مريحة، وأن يعيد تسمية أنانيته حكمةً، وجبنه تعقلاً، ورياءً دعوةً، وانتقامه عدلاً، وتقصيره عجزاً؛ أما هناك فتسقط الأسماء التي اخترعها الهوى، ويرى الفعل باسمه الحقيقي، والنية بوجهها الحقيقي، والأثر في امتداده الحقيقي.

إن أعظم ما يفزع النفس يوم القيامة ليس أن تواجه سجلاً غريباً عنها، بل أن تواجه نفسها من غير قدرةٍ على التجميل. فهي تعلم، وتقر، وتدرك الصلة بين البذرة والثمرة، وبين الخاطر الذي استضافته والفعل الذي أنشأه، وبين القرار الصغير والمصير الذي انتهى إليه. وما أشد المعرفة حين تأتي بعد فوات إمكان التغيير؛ إذ لا يعود العلم طريقاً إلى العمل، بل يصبح شهادةً على ما كان يمكن إصلاحه ثم ترك حتى أغلق بابه.

ومع ذلك فإن الآية، وهي تهزُّ القلب بالخوف، تفتح أمامه في الدنيا باباً واسعاً للرجاء؛ فما دام الإنسان يقرأها قبل أن تنفطر السماء، فما زال قادراً على أن ينظر في ما يقدّم، وأن يطهر ما يؤخّر، وأن يقطع أثر شرِّ بدأه، وأن ينشئ أثر خيرٍ يبقى بعده. إن الرحمة ليست في أن يُعفى الإنسان من رؤية صحيفته، وإنما في أن يُخبر عنها قبل أن تُغلق، ويُذَرَّ قبل أن يأتي اليوم الذي لا تنفع فيه مراجعة، ويُمنح عمراً يستطيع فيه أن يجعل آثار خطاه نوراً يلقاه بدل أن تكون ناراً تتبعه.

وهكذا يجمع المطلع بين انهيار الكون وقيام المسؤولية؛ فالعالم الذي ظنناه عظيماً ينفرط، والعمل الذي حسبناه صغيراً يبقى. السماء تزول، والكلمة لا تزول؛ الكواكب تنتثر، والنية تُحفظ؛ البحار تتفجر، والأثر يعود؛ القبور تُبعثر، والإنسان يعرف. إنها مفارقة السورة الأولى: ما أبهر العين بفخامته مؤقت، وما استهان به القلب من اختياراته خالدٌ في ميزان الجزاء.

ولذلك لا تريد منا هذه الآيات أن نعيش مذعورين من نهاية العالم بقدر ما تريد أن نعيش مستيقظين لمعنى العمل؛ فالنجاة لا تكون بمعرفة موعد الانفطار، وإنما بإصلاح ما سنعرفه بعده. وليست الحكمة أن نشغل بتفاصيل المشهد عن رسالته، بل أن نسمع من خلال تصدع السماء سؤالاً يتجه إلى أعماقنا: ما الذي نرسله الآن إلى ذلك اليوم؟ وما الأثر الذي سيمشي خلفنا حين نتوقف أقدامنا؟ وأيُّ نفسٍ سنلقاها حين تسقط عنا كل الروايات، ولا يبقى لنا إلا ما قدّمنا وما أخرنا؟

الفصل الثاني

سؤال الكريم الذي يهدم غرور الإنسان

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾

بعد أن عرضت السورة انقلاب الكون، وانفطار السماء، وانتشار الكواكب، وتفجير البحار، وبعثرة القبور، وبعد أن انتهت بتلك النفس التي تعلم ما قدمت وما أخرت، لم تنتقل مباشرة إلى تقرير الجزاء، بل توقفت عند الإنسان نفسه، ونادته نداءً يكاد ينتزعه من بين الزحام ليوقفه وحيداً أمام ربه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾. لم تقل: يا أيها الكافر، ولا يا أيها العاصي، ولا يا أيها الغافل؛ لأن الخطاب يتناول الإنسان من جهة إنسانيته التي يداخلها الضعف، ويهددها النسيان، ويجد الغرور إلى قلبها طرقاً كثيرة. فكأن السورة لا تواجه فئةً منعزلةً عن سائر البشر، بل تواجه البذرة التي يمكن أن تنمو في كل نفسٍ إذا غفلت عن ربها، واسترسلت مع ستره، وقرأت تأخير العقوبة قراءةً مغلوطة.

إنه نداءً مهيب، لكنه لا يخلو من قربٍ عجيب؛ فالذي ينادي الإنسان هو خالقه، والذي يسأله هو العالم بخفايا عذره قبل أن ينطق به، والذي يواجهه بتقصيره هو الذي لم يقطع عنه رحمته وهو يعصيه. ولعل سرَّ قوة السؤال أنه لا يبدأ بتعداد الذنوب، وإنما يبدأ بكشف الجذر الذي أنبتها: ﴿مَا غَرَّكَ﴾؟ ما الذي خدع بصيرتك حتى رأيت الباطل في صورة الحق؟ ما الذي جعل المخلوق الضعيف يعيش كأنه لا يسأل؟ ما الذي أفتعك بأن الأيام التي مُدَّتْ لك ملكٌ لا يُسترد، وأن الصحة التي تسري في جسدك حقٌّ ذاتي، وأن الستر الذي أحاط بخطاياك موافقةٌ عليها، وأن تأخير الحساب إلغاءٌ له؟

والغرور ليس جهلاً محضاً، بل هو معرفةٌ دخل عليها الخداع؛ إذ قد يعرف الإنسان أن له رباً، وأن للحياة أجلاً، وأن للموت موعداً، ثم يعيش على خلاف ما يعرف. وربما كان أخطر الغرور ما تسلل إلى القلب مرتدياً ثياب المعاني الصحيحة؛ فيغتر المرء برحمة الله حتى يترك التوبة، وبسعة المغفرة حتى يصرَّ على الذنب، ويحسن ظنه بربه حتى يعطلَّ حسن العمل، مع أن الرجاء الصادق لا يقطع صاحبه عن الطريق، بل يدفعه إليه، ولا يجعله أجراً على المعصية، بل أشد حياءً من الكريم الذي يرجوه.

ثم إن السؤال لا يقول: ما غرَّكَ بالله؟ وإنما يقول: ﴿مَا غَرَّكَ رَبِّكَ﴾، فيستحضر معنى الربوبية بكل ما تحمله من خلقٍ ورعايةٍ وتديرٍ وإنعام. إنه ربك الذي أوجدك حين لم تكن شيئاً، وغذاً قبل أن تعرف كيف تطلب الغذاء، وحفظك في أطوار ضعفك التي لم تملك فيها لنفسك نفعاً ولا ضرراً، ونقلك من طورٍ إلى طور حتى استقام لك جسدك ووعيك ولسانك. فكيف صار أثر التربية الإلهية الطويلة حجاباً عن المربي؟ وكيف استخدمت القوة التي منحك الله إياها في الإعراض عنه؟ وكيف تحولت النعم التي كان ينبغي أن تكون جسوراً إلى معرفته إلى جدرانٍ تفصلك عنه؟

وفي إضافة الرب إلى ضمير المخاطب - ﴿رَبِّكَ﴾ - لمسةٌ توقظ في القلب معنى الصلة الخاصة؛ فهو ليس ربَّ الأكوان البعيدة فحسب، بل ربك أنت: رب ضعفك الذي لا يراه الناس، ورب خوفك حين يهدأ الضجيج من حولك، ورب حاجاتك التي تعجز لغتك عن بيانها، ورب ماضيك الذي لا تستطيع إصلاحه إلا بمغفرته، ورب مستقبلك الذي لا تدري ما يُخفيه، ورب نبضك الذي لو انقطع لم تستطع قوة الأرض أن تعيده. فالسؤال لا يضع الإنسان أمام سلطةٍ غريبةٍ عنه، بل أمام مَنْ كان أقرب إليه من كل ما احتفى به بعيداً عنه.

ثم يأتي الاسم الذي يضاعف الحياء: ﴿الكَرِيمُ﴾. كان يمكن أن تُختتم الآية باسم يدل على القوة أو البطش أو سرعة الحساب، فيرتجف الإنسان خوفاً، لكنها جاءت بالكرم، ليكون العتاب أعمق من التهديد؛ لأن النفس قد تصبر على مواجهة من أساء إليها، لكنها تنكسر حين تواجه من أحسن إليها وهي تقابله بالجحود. وما أشد أن يرى العبد يوم القيامة أن كل لحظة عصي فيها كانت محاطةً بكرم الله: أرضه حملته، وسماؤه ظلته، وهواؤه دخل رثيته، وقبله واصل النبض، وباب التوبة بقي مفتوحاً، والستر ظلّ مسدولاً، ثم لم يزد ذلك إلا بعداً!!

الكرم الإلهي ليس هو الذي يغر الإنسان حقيقةً؛ فإن صفات الله كلّها هدايةٌ ونور، ولكن النفس المنحرفة هي التي تسيء قراءة الكرم، والشيطان هو الذي يحول المهلة في وهماها إلى أمان. فالكريم أمهل العبد ليرجع، لا ليتمادى، وستره ليستحيي، لا ليجتري، ورزقه ليشكر، لا ليكفر، وفتح له باب الرجاء كي لا يقنط من العودة، لا كي يجعل الرجاء وثيقةً يبرر بها الإقامة على الخطيئة. ومن احتج بالكرم على العصيان فقد قلب المعنى؛ إذ كان ينبغي أن يكون كرم الله أشد دواعي الحياء منه، وأقوى ما يدفع القلب إلى محبته وطاعته.

إن حسن الظن بالله ليس فكرةً مريحةً يعزلها المرء عن سيرته، بل موقفٌ تعبدِيٌّ له برهانه؛ فمن أحسن الظن بالمغفرة طلبها، ومن أحسن الظن بقبول التوبة تاب، ومن أحسن الظن بالجزاء عمل، ومن أحسن الظن بحكمة الله رضي بأمره وإن لم يفهم جميع أسرارهِ. أما أن يترك الإنسان طريق الله ثم يزعم أنه يحسن الظن بنهايته، فذلك ليس رجاءً، بل أمنيةٌ صنعها الهوى ليخدّر بها الضمير.

وللسؤال امتداداً إلى أنواع كثيرة من الغرور. فقد يغر الإنسان شبابه، فيحسب أن الموت لا يطرق إلا الأبواب التي شاخت؛ وتغرّ صحته، فيعامل جسده كأنه آلة لا تتعطل؛ ويغرّ ماله، فيتوهم أن ما اشتراه في الدنيا يمكن أن يشتري له النجاة في الآخرة؛ وتغرّ مكانته، فيقيس قدره عند الله بمقدار انحناء الناس له؛ ويغرّ علمه، فيتحول النور الذي كان ينبغي أن يدلّه على ربه إلى مرآة لا يرى فيها إلا نفسه؛ ويغرّ عمله الصالح، فينتقل من الافتقار إلى المنى، ومن شكر التوفيق إلى عبادة الإنجاز؛ وقد تغرّ ذنوب الآخرين، فيرى قبحهم كبيراً حتى ينسى ما في باطنه.

وربما كان من أخفى الغرور أن يغر الإنسان بصورته الدينية؛ فيتقن الكلام عن الله، لكنه لا يتأدب معه في خلوته، ويصنع للناس هيئةً من الصلاح أوسع من حقيقته، ثم يطيل النظر إلى هذه الهيئة حتى يصدقها. وهذا غرورٌ مركب؛ لأن صاحبه لا يعصي فحسب، بل يجعل بعض مظاهر الطاعة ستاراً يحول بينه وبين رؤية حاجته إلى التوبة. إن أخطر ما يفعله الرياء أنه لا يخدع الناس وحدهم، بل قد يعود على صاحبه فيخدعه عن نفسه، حتى يشغل بحراسة صورته في العيون عن إصلاح منزلته عند الله.

وقد يغر الإنسان اتساع الوقت؛ فيؤجل التوبة إلى هدوء لا يأتي، وإلى شيخوخة لا يضمناها، وإلى فراغ لا تصنعه الدنيا لأحد. يقول لنفسه: سأعود حين تنتهي هذه الشهوة، وحين تستقر هذه الظروف، وحين يخف هذا الاضطراب؛ لكنه لا يدرك أن القلب يتشكل بما يكره، وأن التأجيل ليس وقوفاً محايداً، بل هو تدريبٌ مستمر على البعد. فكل مرة يسمع فيها نداء العودة ثم يؤجله، يصبح التأجيل في نفسه أسهل، ويصير صوت الضمير أخفت، حتى يجيئه الموت وهو لا يزال ينتظر النسخة المثالية من حياته التي تخيل أنه سيتوب فيها.

وهذا السؤال القرآني لا يسمح للإنسان بأن يجيب إجابةً عامةً باردة؛ بل يطالبه أن يبحث في تفاصيل غروره: ما الشيء الذي إذا حضر في قلبي نسيت الله؟ وأي نعمة تحولت في يدي من دليل على المنعم إلى حجاب عنه؟ وأي عذرٍ أكرهه حتى فقدت قدرتي على رؤية زيفه؟ وأين استخدمت ستر الله لأحمي خطيئتي بدل أن أعود منه؟ إن الإجابة الصادقة ليست لفظاً يقال، بل موضعٌ في النفس يجب أن يفتح للنور، ورباطٌ مع الوهم لا بد أن ينقطع.

وليس القصد من السؤال أن يُسحق الإنسان تحت وطأة عجزه، بل أن يُحرر من الخداع الذي يسوقه إلى هلاكه. فالقرآن حين يفضح الغرور لا يهين الإنسان، وإنما ينقذه من مهانة أن يعيش أسيراً لوهمه. وحين يهدم ثقته الزائفة بنفسه، فإنه يعيد بناء ثقته بالله؛ وحين ينزع عنه شعور الاستغناء، يرده إلى مقام الافتقار الذي فيه قوته الحقيقية. فما ضعف الإنسان لأنه عبدٌ لله، وإنما يضعف حين ينسى عبوديته، ويحمل نفسه ما لا تحتمل من ادعاء الاستقلال والسيطرة والدوام.

ويبقى السؤال ممتدّاً في الزمن لا يُغلّقه جوابٌ واحد: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ؟﴾ ينبغي للمؤمن أن يسمعه كلما قسا قلبه، وكلما أترّحاً، وكلما استصغر ذنباً، وكلما أعجبت نفسه، وكلما اعتقد أن كثرة حديثه عن الطريق تغنيه عن السير فيه. إنه سؤالٌ يطهّر الرجاء من التواكل، ويطهّر العبادة من العجب، ويطهّر المعرفة من الكبر، ويطهّر القلب من استغلال الكرم الإلهي في غير ما أفيض من أجله.

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾

لا تترك السورة الإنسان يبحث طويلاً عن شواهد الكرم، بل ترده إلى أقرب معجزةٍ إليه وأشدّها التصاقاً به: وجوده نفسه. فالذي يسألك: ﴿مَا غَرَّكَ؟﴾ هو ﴿الَّذِي خَلَقَكَ؟﴾؛ وكأن

أول ما ينبغي أن يوقفك من الغرور أن تذكر أنك لم تخلق نفسك، وأنك لم تكن حاضراً في اللحظة التي بدأ فيها تكوينك، ولم تختَر مادّةك الأولى، ولا زمان مجيئك، ولا مكان ميلادك، ولا ملامحك الأساسية. لقد جاء وجودك كله هبةً سابقةً على إرادتك؛ ثم نشأت إرادتك نفسها داخل الخلق الذي وهبك الله إياه.

إن فعل ﴿خَلَقَكَ﴾ يردُّ الإنسان إلى أصل افتقاره؛ لأن المخلوق لا يستطيع أن يكون مستقلاً عن خالقه، مهما اتسعت معارفه وتضخمت قدراته. يستطيع الإنسان أن يصنع أشياء من مواد موجودة، وأن يغير صورها ووظائفها، لكنه لا يمنح ذرةً وجودها من العدم، ولا يصنع الحياة من ذاته، ولا يملك السر الذي يجعل الخلية الأولى تنقسم في نظامٍ دقيق حتى تتكون منها أعضاء متباينة، لكل عضو بناؤه ووظيفته وموقعه.

ثم قال: ﴿فَسَوَّاكَ﴾؛ فلم يكن الخالق جمعاً عشوائياً للعناصر، بل تسويةً وإحكاماً وتقديراً. والتسوية تمنح كل جزء ما يلائمه داخل الكل؛ فلا تعمل العين منعزلةً عن الدماغ، ولا يتحرك اللسان بلا جهازٍ عصبي، ولا ينبض القلب لنفسه، بل يرسل الحياة إلى سائر الجسد، ولا يقف العظم في موضع اللحم ولا اللحم في موضع العصب. إنك لست أجزاءً متجاورةً فحسب، بل نظامٌ تتساند عناصره في وحدةٍ مدهشة، ولو اختلَّ شيءٌ دقيقٌ من هذا التناسق لتحولت النعمة التي لا تشعر بها إلى ألمٍ يستولي على الوعي كله.

إن الإنسان يعيش داخل جسده طويلاً حتى يألف المعجزة ويفقد الدهشة؛ يفتح عينيه فيرى، ويحرك يده فتستجيب، ولستدعي كلمةً من ذاكرته فتأتي، ويأكل فتحول أجهزته الطعام إلى طاقةٍ ودمٍ وحياة، ثم يمر على ذلك كله كأنه أمرٌ واجبٌ على الوجود. غير أن الاعتياد لا يلغي الإعجاز؛ فالشمس لا تصبح أقل عظمةً لأنها تشرق كل يوم، والقلب لا

يصبح أقل دلالةً لأنه نبض آلاف المرات من غير أن نستأذنه. إن النعمة المتكررة لا تفقد قيمتها، لكن القلب الغافل يفقد قدرته على رؤيتها.

ثم قال: ﴿فَعَدَّلَكَ﴾ ، وهي كلمة تجمع معنى التعديل والتقويم والتناسب؛ فجعل الله أعضاءك في مواضعها، وأقام بنيتك على الاعتدال، ومنحك هيئةً تقدر بها على النهوض والحركة والعمل والتواصل. ومن التأمل في هذا التعديل أن الإنسان يقف منتصباً، فيستطيع أن يرفع وجهه إلى السماء، وأن تمتد يده للعمل، وأن يتجه ببصره إلى الآفاق؛ فكأن هيئته الجسدية تذكّره بكرامته ومسؤوليته معاً، فلا يعيش مطأطئ الروح للشهوة وإن كان قائم الجسد.

والتعديل لا يقتصر على تناسق الصورة الظاهرة، بل يشمل ما أودعه الله في الإنسان من قوى الإدراك والإرادة والشعور، ومن القدرة على التمييز والتعلم والتذكر والتعبير. لقد عدّله ليكون أهلاً للتكليف؛ فلم يمنحه عقلاً ليتباهى به فقط، بل ليعرف الحق، ولم يمنحه لساناً ليكثر الكلام، بل ليقول الصدق، ولم يمنحه حرية الاختيار ليعبد هواه، بل ليختار الله عن بصيرة. وكل موهبةٍ في الإنسان تحمل داخلها أمانتها؛ فليست النعمة امتيازاً خالصاً، وإنما مسؤوليةٌ سيُسأل عن وجه استخدامها.

وهنا يتضاعف معنى العتاب: كيف يعصي الإنسان ربّه بالأدوات التي خلقها له وسوّاها وعدّلها؟ ينظر بعينٍ خلقها الله إلى ما حرّم الله، وينطق بلسانٍ سوّاه الله بما يسخط الله، ويمشي بقدمين عدّلهما الله إلى موضع المعصية، ويفكر بعقلٍ وهبه الله في الحيلة على أمره. إن الخطيئة في هذا الضوء ليست خروجاً على قاعدةٍ مجردة، بل استعمالٌ لعطايا المنعم في معاندته؛ وهذا ما يجعل الحياء من الله مقاماً عظيماً من مقامات المعرفة، إذ يرى العبد أن كل جارحةٍ تتحرك فيه تستدعي الشكر قبل أن تسمح له بالغفلة.

ومع ذلك لا يدعو التأمل في تسوية الإنسان إلى عبادة الجسد أو الغرور بجماله؛ فالجسد آية لا إله، وأمانة لا ملكٌ مطلق، ووسيلة لعبور الامتحان لا غاية الوجود. وقد يختلف الناس في صورههم وقواهم وأحوال أجسادهم، وقد يُبتلى بعضهم بنقصٍ أو مرض، لكن كرامتهم الإنسانية لا تُقاس بقوالب الجمال التي يصنعها المجتمع، ولا يسقط عنهم معنى الخلق الإلهي والتكريم. فالله ينظر إلى القلوب والأعمال، ولا يجعل تفاوت الصور ميزان التفاضل بين عباده.

إن من الظلم أن يحول الإنسان الآية التي تدله على حكمة الخالق إلى معيارٍ لقسوة المخلوق على أخيه؛ فيحتقر هيئة لم تختَر نفسها، أو يجعل الجمال الظاهر شهادةً على قيمة صاحبه. فالذي ركب الخلق في صور شتى هو الله، والاختلاف نفسه جزءٌ من مشيئته وحكمته، وليس لأحد أن يتخذ ما وُهب له سبباً للاستعلاء على من وُهب صورةً أخرى. الجمال نعمةٌ يُشكر واهبها، وليس إنجازاً صنعه صاحبه حتى يتكبر به.

والتسوية والتعديل يردان كذلك على ذلك التصور الذي يختزل الإنسان في حادثةٍ ماديةٍ بلا غاية، ويتعامل مع وعيه وضميره وقدرته على طلب المعنى كأنها هوامش لا دلالة لها. إن الآية تقرر أن وراء البنية قصداً، ووراء التناسب حكمةً، ووراء الصورة إرادةً؛ فالإنسان لم يُلقَ في الوجود عبثاً، وما دام قد خلق بهذه العناية، فإنه لم يترك بلا رسالة، ولن يطوى بلا حساب.

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾

تكتمل رحلة التكوين بهذه الآية: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾. فالإنسان لم يختَر صورته ثم يطلب من الله أن يحققها له، بل سبقت مشيئة الله ووجد هو داخل ما شاء الله من

تركيب. وبين ملايين الوجوه منح كل إنسان ملامحه التي يُعرف بها، وبين اختلاف الطبائع والاستعدادات والخصائص أقامه في صورةٍ مقدرة، لا نتقدم على علم الله ولا نخرج عن إرادته.

ولفظ ﴿رَكَّبَكَ﴾ يوحي بأن الإنسان بناءً بالغ الدقة، اجتمعت عناصره وأعضاؤه وخصائصه على هيئةٍ مخصوصة. وليس التركيب مجرد جمع؛ فرب أجزاءٍ إذا جُمعت لم تُنتج حياة، أما الإنسان فقد رُكِّب في وحدةٍ تتحول فيها المادة إلى جسدٍ حي، وتنبثق من الجسد مشاعر وذكريات وإرادات وأسئلة عن الغاية والمصير. وكلما تعمق المرء في معرفة هذا البناء ازداد إدراكاً لجهله؛ إذ يكتشف من التفاصيل ما يدلّه على أن وجوده ليس مسألةً بسيطةً يمكن اختزالها في وصفٍ عابر.

وفي قوله: ﴿مَا شَاءَ﴾ إرجاعٌ صريحٌ للأمر إلى المشيئة الإلهية؛ فلا أحد له فضلٌ ذاتيٌّ في أصل صورته، ولا عار على أحدٍ في شيءٍ لم يختره. ومن هنا تنشأ أخلاقٌ كاملة: التواضع لمن أُعطي جمالاً أو قوة، والرحمة بمن ابتلي، والرضا الذي لا يمنع السعي إلى العلاج أو الإصلاح، لكنه يمنع القلب من الاعتراض المتكبر على خالقه، ويحفظ للإنسان قيمته بعيداً عن مقاييس السوق ونظرات الناس.

وما أشد قسوة العالم حين يجعل الصورة الظاهرة محكمةً يوزع بها الكرامة؛ فيفتح الأبواب لوجه، ويغلقها في وجه آخر، ويجعل لوناً أو هيئةً أو سلامة بدن سبباً للتفضيل الأخلاقي. تأتي الآية لتقول إن الصور جميعاً واقعةٌ تحت مشيئة الخالق، وإن الإنسان لم يصنع ملامحه حتى يستحق بها مجداً، ولم يختَر نقصه حتى يُعاقب عليه احتقاراً. الذي يُنسب إلى الإنسان

حقًا هو موقفه الأخلاقي داخل الصورة التي أُعطِيها: هل شكر أم كفر؟ هل تواضع أم استعلى؟ هل جعل جسده وسيلةً للطاعة أم باباً للفساد؟

والصورة ليست الجسد وحده؛ فلإنسان صورةٌ يَبنِيها في وعي الآخرين، وقد يقضي عمره في تليعها حتى ينسى حقيقته. يهتم كيف يبدو أكثر مما يهتم كيف يكون، ويخشى انكشاف نقصه أمام الناس أكثر مما يخشى ثبوته في علم الله. لكن سورة الانفطار جاءت من أولها لتعلن انهيار الصور: صورة السماء الثابتة تنفطر، وصورة الكواكب المنتظمة تنتثر، وصورة البحار المحجوزة تتفجر، وصورة القبور المغلقة تبتعث، فكيف يظن الإنسان أن صورته المصنوعة ستبقى له حين تسقط صور الكون الكبرى؟

إن الله الذي رَكَّبَكَ في صورةٍ ظاهرة يعلم الصورة الباطنة التي صنعتها اختياراتك؛ يعلم أين اختبأ الكبر وراء الوقار، وأين توارت الأنانية خلف التضحية المعلنة، وأين كان الصدق خالصاً لا يراه أحد، وأين قاومت النفس هواها في صمت. وعند الله لا تنفع بلاغة الصورة إذا كانت الحقيقة خاوية، ولا يضر تواضع الصورة إذا كان القلب ممتلئاً بالإيمان. فميزان الآخرة لا تحكمه الزينة التي استوقفت عيون الخلق، بل الحقيقة التي لم تغب عن علم الخالق.

وفي اتصال هذه الآيات بعضها ببعض يظهر السؤال في كامل قوته: ما غرَّكَ بربك الكريم، وهو الذي خلقك من عدم، فسوّى بنيتك، فعَدَّلَ أعضائك وقواك، ثم رَكَّبَكَ في الصورة التي شاءها لك؟ أيُّ شيءٍ بعد هذا يمكن أن يمنحك شعور الاستغناء؟ وأيُّ نعمةٍ تملكها ليست فرعاً عن ذلك الخلق الأول؟ إن المال يحتاج إلى يدٍ تمسكه، والجاه يحتاج إلى لسانٍ وعقلٍ وحضور، والعلم يحتاج إلى ذاكرةٍ ووعي، وكل ما يفتخر به الإنسان قائمٌ على أصلٍ لم يصنعه: أنه موجود لأن الله أوجده.

وهنا تتقلىنا الآيات من معرفة الخلق إلى أدب العبودية. فإذا علمت أن الله خلقك، فليس جسدك مباحاً لكل هوى؛ وإذا علمت أنه سواك، فلا تشوّه بالتكبر جمال التسوية؛ وإذا علمت أنه عدلك، فلا تمل بميزانك عن الحق؛ وإذا علمت أنه ركبك في الصورة التي شاء، فلا تحتقر صورةً أخرى، ولا تعبد صورتك، ولا تجعل رأي الناس فيها مقياس نجاتك.

إن الجواب الذي يليق بهذا الكرم ليس كلمةً يعتذر بها اللسان وحده، بل حياةٌ تعود إلى موضعها الصحيح: أن يعرف المخلوق خالقه، وأن يرى في كل عضوٍ عهداً، وفي كل موهبةٍ تكليفاً، وفي كل نعمةٍ باباً إلى الشكر، وفي كل ضعفٍ تذكيراً بالافتقار. وحين يستقر ذلك في القلب، لا تعود العبادة عبثاً مفروضاً من خارج الحياة، بل تصبح استجابة الوجود كله للذي أنشأه؛ ويصير السجود عودة الصورة إلى معناها، وعودة الجسد إلى شكره، وعودة الإنسان من الغرور بما أُعطي إلى التواضع لمن أُعطي.

فهذه الآيات الثلاث ليست وصفاً لمراحل الخلق فحسب، بل إقامةٌ للحجة من داخل الإنسان نفسه. وقبل أن يطلب القرآن منه أن ينظر في الآفاق، يطلب منه أن ينظر في مرآة وجوده: من جاء بك؟ من سواك؟ من عدلك؟ من اختارك صورتك؟ فإذا أخلص في الإجابة، وجد أن حياته كلها محاطةٌ بالله: بدأت بمشيئته، واستقامت بتدبيره، واستمرت بحفظه، وستعود إلى حكمه. وعندئذ يفهم أن أشد الغرور جهالةً أن يستخدم الإنسان وجوداً وهبه الله له ليعيش كأن الله لا حق له فيه.

الفصل الثالث

حِينَ يَغِيبُ يَوْمُ الْجَزَاءِ عَنِ الْقَلْبِ وَتَبْقَى الْأَعْمَالُ تَحْتَ الْحِرَاسَةِ

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّنِّ﴾

بعد السؤال الذي اخترق غرور الإنسان، وبعد تذكيره بأن الله هو الذي خلقه فسوّاه فعدّله وربّكه في الصورة التي شاء، تأتي ﴿كَلَّا﴾ لتقطع عليه طرق المراوغة، وتردع النفس عن البحث عن أعذارٍ مريحة تخفي بها أصل الداء. فالقضية ليست أن أدلة الخالق غابت، ولا أن آثار الكرم كانت خفية، ولا أن الإنسان لم يجد في نفسه والكون ما يدلّه على ربه؛ وإنما هنالك خللٌ أعمق في علاقته بالحقيقة الأخروية: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّنِّ﴾.

والذّن هنا هو الجزاء والحساب؛ اليوم الذي تُردُّ فيه الأعمال إلى أصحابها، ويُقضى فيه بين العباد بالحق، وتنتهي فيه المسافة التي بدت في الدنيا طويلةً بين الفعل ونتيجته. فليس التّكذيب بيوم الدين إنكاراً لفظياً فحسب؛ قد يقرُّ الإنسان بالآخرة بلسانه، ويحفظ أوصافها، ويتحدث عن الجنة والنار، ثم يعيش كأن الحساب لن يأتي. هناك تكذيبٌ تصرّح به العقيدة، وتكذيبٌ تمارسه السيرة؛ والثاني قد يتسلل إلى قلب من لم يتجرأ على الأول، فيؤمن بالجزاء فكرةً، لكنه يعزله عن قراراته وموازينه وشهواته.

إن الإيمان الحقيقي بيوم الدين ليس معلومةً موضوعةً في طرف الذاكرة، بل قوةٌ تعيد تشكيل الحياة كلها؛ فهو يغيّر معنى الرّيح والخسارة، ويمنح العمل الخفي وزنه، ويمنع الإنسان من بيع ضميره من أجل مكسبٍ يفنى، ويجعله يرى أن ما يفوته في الدنيا ابتغاء مرضاة الله ليس

ضائعاً، وأن ما يناله بمعصيته ليس ربحاً. فإذا بقيت الموازين كما هي، وأصبحت الدنيا هي المحكمة الأخيرة في الوجدان، وكان ما يراه الناس أهم مما يعلمه الله، وجب على المرء أن يسأل نفسه: ما مقدار حضور يوم الدين في قلبي، لا في عباراتي وحدها؟

وحين يضعف اليقين بالجزاء، تنكمش الحياة حتى تصبح لحظة عياء؛ فيقول الإنسان: ما دمت قادراً على النجاة من القانون فقد نجوت، وما دام الناس لا يرونني فلا شاهد عليّ، وما دام الظلم يفتح لي باباً إلى المنفعة فلماذا أرفضه؟ وهكذا لا يعود الخير خيراً في ذاته ولا لأنه يرضي الله، بل بقدر ما يحقق من مصلحة عاجلة، ولا يعود الشر شراً إذا أمكن إخفاؤه أو تزيينه. ومن هنا يظهر أن الإيمان بالآخرة ليس فصلاً منعزلاً من فصول العقيدة، بل هو أساس للحياة الأخلاقية، يحفظ للحق معناه حين لا يصفق له أحد، ويحفظ للعدل قيمته حين تكون كلفته ثقيلة.

إن الدنيا وحدها لا تكفي لتفسير العدالة؛ ففيها يموت مظلومٌ قبل أن يسترد حقه، ويفلت ظالمٌ من عقوبة البشر، ويغادر صالحُ الحياة وقد أحاطت به الآلام، ويتقلب مفسدٌ في رخاءٍ طويل. ولو انتهى الوجود عند هذه الحدود لظلت أسئلةٌ كبرى معلقةً فوق التاريخ، ولأصبح كثيرٌ من الدم المسفوك خبراً طواه الزمن، وكثيرٌ من الوفاء تضحيةً بلا ثمرة. لكن يوم الدين هو اليوم الذي يُكمل معنى العدل، لا لأن الله كان غائباً عن الدنيا، بل لأنه جعلها دار ابتلاءٍ وأهل فيها الخلق، ثم جعل الآخرة دار ظهور الجزاء التام.

وفي التعبير بـ ﴿تَكْذِبُونَ﴾ بصيغة المضارع إشارة إلى فعلٍ يتكرر ويتجدد؛ فالتكذيب ليس كلمة انتهت، وإنما موقفٌ يعاد كلما عاش الإنسان على خلاف مقتضى الحساب. إنه يكذب بالدين عملياً حين يختار لذةً عابرةً وهو يعلم أنها تورثه نداماً باقياً، وحين يظلم لأنه لا يرى محكمةً

قريبة، وحين يقدّم رضا الناس على رضا الله، وحين يقيس قيمة العمل بحجم صداه الأرضي لا بقبوله في السماء.

وقد يكون الإنسان مصلياً، لكنه حين يختلي بمال الضعيف يتصرف كأن لا حساب؛ وقد يحدث الناس عن الأمانة، لكنه إذا تعارضت الأمانة مع مصلحته نسي ما قال؛ وقد يبكي عند سماع آيات القيامة، ثم يعود إلى خصوماته فيفجر، وإلى سلطته فيبطش، وإلى قلبه فيفتري. وهنا لا يكون العيب في قلة المعلومات عن اليوم الآخر، بل في انفصال المعرفة عن الإرادة؛ فالحق وصل إلى العقل، لكنه لم ينزل إلى المنطقة التي تصنع القرار.

ولست السورة في قولها: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَدِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ تنفي ما سبق من صور الغرور، بل تردّها إلى جذرها العميق؛ فالشباب يغرّ من نسي الحساب، والمال يغرّ من اعتقد أن ما في اليد أهمّ مما عند الله، والسلطة تغرّ من لم يرَ نفسه واقعاً فرداً لا يملك لنفسه شيئاً، والستريغّ من ظن أن تأخير ظهور العمل يعني ضياعه. إن فروع الغرور كثيرة، لكن جذعها الأكبر ضعف اليقين بالعودة.

وكلها حضريوم الدين في القلب استقامت رؤية الإنسان للكرم الإلهي؛ فلا يعود الإهمال عنده دليلاً على الإفلات، بل فرصة للاستدراك، ولا تكون المغفرة ذريعة للإصرار، بل دعوة للرجوع، ولا تتحول النعمة إلى حجاب، بل تصير أمانةً سيُسأل عنها. إنه يعيش بين خوفٍ يمنعه من الغفلة، ورجاءٍ يمنعه من القنوط، ويعلم أن الله الكريم الذي فتح باب التوبة هو نفسه الحكم العدل الذي لا يُبطل حقوق العباد ولا يسوّي بين البر والفجور.

ولذلك فإن علاج التكذيب العملي ليس أن يكرر الإنسان القول بأن الآخرة حق فحسب، بل أن يدخلها في تفاصيل يومه: قبل الكلمة، وقبل التوقيع، وقبل الحكم على الآخرين، وقبل مد

اليد إلى ما لا يحل، وقبل تحويل الخصومة إلى افتراء. أن يسأل: كيف سيبدو هذا الفعل حين يُنزع من حوله عذر المصلحة وضحيج الجمهور؟ وكيف سأقرؤه إذا وجدته مكتوباً في صحيفتي؟ إن من استحضر موقف العرض قبل الفعل خَفَّ عليه أن يترك ما يثقله بعده.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾

قد يتوهم الإنسان أن تكذيبه بالحساب، أو غفلته عنه، يغير من حقيقة ما ينتظره؛ فجاءت الواو لتصل الخطاب بما قبله وتقرر حقيقة لا تتوقف على إيمان المنكر بها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾. أتم تكذيبون بالدين، ولكن أعمالكم مع ذلك محفوظة؛ تنسون، ولكن الحفظ لا ينسى؛ تغلقون الأبواب، ولكن الخلوة لا تُخرجكم من سلطان الله؛ تحون آثاركم من أعين الناس، ولكن ما وقع لا يخرج من سجل الحقيقة.

وقد جاءت الجملة مؤكدة بـ ﴿إِنَّ﴾ واللام في ﴿لَحَافِظِينَ﴾، لتقرر الأمر في وجه كل وهم يراهن على الضياع أو النسيان. وليس الحفظ هنا معنى عاماً مبهماً، بل هو إحاطة بأعمال الإنسان وتسجيلها على نحو لا تضيع معه حركة اختارها، ولا كلمة قصدتها، ولا فعل ترتب عليه استحقاق. إن الحياة ليست صفحاتٍ تساقط بمجرد انقضاء أيامها، بل كتابٌ يتكون، وكل لحظةٍ تعبر من الزمن تستقر في الحفظ الإلهي حتى يحين موعد العرض.

وفي قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ إحساسٌ بالملازمة والإحاطة؛ فالحفظة ليسوا شهوداً عابرين يلتقون الإنسان في بعض الأماكن، وإنما هم موكلون به، يصحبون مسيرته، ويكتبون ما يجري منه. وهذا المعنى يخرج المرء من وهم العزلة المطلقة؛ فهو قد يخلو عن الناس، لكنه لا يخلو عن رقابة الله، ولا يغادر صحبة الملائكة الذين أقامهم الله على حفظ عمله.

ولا يعني ذلك أن الله يحتاج إلى مَنْ يخبره بما يفعل عباده؛ فهو سبحانه يعلم السر وأخفى، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة. وإنما في توكيل الملائكة بالحفظ إظهاراً لإحكام الحجة، وتشريفً لنظام المسؤولية، وجعلٌ للعبد أمام سجلٍّ مضبوطٍ يشهد بما صنع. فعلم الله محيطٌ قبل الكتابة وبعدها، والملائكة يكتبون بأمره ما علمه منهم، ليأتي الإنسان يوم القيامة فلا يجد مجالاً للدعاء بأن حياته ضاعت تفاصيلها في ازدحام الخلق.

وهذه الرقابة ليست شبيهةً برقابة البشر التي قد يداخلها الظلم أو التجسس أو سوء التأويل؛ فالملائكة لا تتلذذ بسقوط الإنسان، ولا تنصب له الفخاخ، ولا تكتب عنه ما لم يفعل، ولا تحاكم نياته بأهوائها. إنهم حفظَةٌ في نظامٍ إلهيٍّ عادل، غايته إظهار الحق، لا انتهاك حرمة العبد. ولذلك ينبغي أن يورث هذا المعنى يقظةً وحياءً، لا مرضاً من الوسواس أو خوفاً يعطل الحياة؛ لأن الله الذي أمر بالحفظ هو الرحيم الذي يعلم ضعف الإنسان، وفتح له باب التوبة، ويبدل السيئات حسناتٍ لمن صدق في رجوعه.

إن استحضار الحفظ يعيد إلى الأفعال الصغيرة وزنها. فالإنسان يميل إلى الاعتقاد أن الأخلاق تظهر فقط في الأحداث الكبرى؛ بينما تكون صحيفته من نظرةٍ كفَّها، وكلمةٍ ابتلعها كي لا تؤذي، وابتسامةٍ جبر بها خاطراً، ودرهمٍ أخفاه في يد محتاج، كما قد ثقلها سخريةٌ عابرة، وإشارةٌ مهينة، وظنٌّ أطلقه على هيئة خبر، ووعدٌ صغيرٌ لم يبالٍ بإخلافه. إن عظمة نظام الحفظ تكشف أن قيمة الفعل لا تتحدد بمقدار الضجيج الذي صنعه، بل بحقيقته عند الله.

وفي الآية عزاءٌ للعاملين في الخفاء؛ لأولئك الذين عبر خيرهم في العالم بلا تصفيق، وأنفقوا ولم تُلْتَقَط لهم صورة، وصبروا ولم يكتب أحدٌ عن صبرهم، وحفظوا العهد حين كان نقضه

أريح، وبكوا من خشية الله في غرفٍ لا يعرف طريقها أحد. هؤلاء لم تضع أعمالهم لأنها لم تدخل ذاكرة الناس؛ فهناك حفظة، وهناك ربٌّ لا تضيع عنده الودائع. ورب عملٍ صغيرٍ لم يشعر به صاحبه صار عند الله عظيمًا لصدق نيته، ورب شهرةٍ ملأت الآفاق لم ترفع صاحبها لأنها كانت تبحث عن العيون لا عن القبول.

وفيها كذلك إنذارٌ لمن يراهن على ضعف ذاكرة الضحية، أو موت الشاهد، أو اختفاء الوثيقة، أو تبدل الرواية؛ إذ يمكن للبشر أن يفقدوا الدليل، لكنهم لا يستطيعون أن يحوا ما كُتب في صحائف الأعمال. ورب جريمةٍ خرج فاعلها من محاكم الدنيا مرفوع الرأس، وهو لا يعلم أن القضية لم تغلق، وإنما نُقلت إلى المحكمة التي لا تغيب عنها واقعة، ولا تُستري فيها شهادة، ولا يملك فيها المتهم قوةً يضغط بها على الحق.

﴿كَرَامًا كَاتِبِينَ﴾

تكشف السورة صفة هؤلاء الحفظة ووظيفتهم: ﴿كَرَامًا كَاتِبِينَ﴾. ووصفهم بالكرم قبل الكتابة يضع وظيفتهم داخل إطار الطهارة والنزاهة؛ فهم كرامٌ في ذواتهم وأخلاقهم وطاعتهم، لا يحملهم هوى، ولا يداخل كتابتهم نقص، ولا يكتبون شتمًا أو انتقامًا. إن الصحيفة التي سيلقاها الإنسان ليست ملفًا عبثت به يدٌ ناقصة، بل سجلٌ تولاه ملائكةٌ كرام لا يعصون الله فيما أمرهم.

وما أعمق الحياء الذي يوقظه هذا الوصف؛ فالمؤمن حين يهتُم بما لا يليق لا يتذكر مجرد وجود شاهد، بل يتذكر كرامة الشاهد. كأن المعصية تقع بحضرة مخلوقاتٍ طاهرة لا تعرف التلذذ بالقبح، فيستحي أن يملأ سجلاً تكتبه أيديٌ كريمة بما ينجل أن يراه يوم القيامة. وليس

هذا الحياء بديلاً عن الحياء من الله، بل فرعٌ عنه؛ إذ الملائكة خلقه، والحفظ أمره، والكتاب سيعرض بين يديه.

أما ﴿كَاتِبِينَ﴾ فتمنح العمل ثباتاً بعد انقضائه؛ فالقول الذي تلاشى صوته قد كُتب، والنظرة التي لم تستغرق إلا لحظةً قد أثبتت، والنية التي تحولت إلى فعلٍ لم تذب في الماضي. ونحن نعيش عادةً تحت وهم أن ما ينتهي زمنه ينتهي وجوده؛ غضب فنقول، ثم يهدأ غضبنا فنحسب أن الكلمة ماتت، ونظلم ثم نتغير الظروف فنظن أن الواقعة صارت تاريخاً، لكن الكتابة تحفظ الحدث من أن يتبدد في مرور الأيام.

والكتابة هنا ترفع قيمة الزمن؛ فلو كانت اللحظات تضي بلا أثر لكان إهدارها هيناً، لكنها تتحول إلى سطورٍ في كتاب العمر. كل صباح صفحةٌ بيضاء لا تبقى بيضاء، وكل مساءً ختمٌ لجزءٍ لا يعود كما كان. ولأن الإنسان لا يرى الملائكة وهم يكتبون، يسهل عليه أن ينسى أن كتابه يتشكل؛ لكن الغيب لا يصبح أقل حقيقةً لأن الحواس لا تدركه، كما لا يتوقف القلب عن النبض لأن العين لا تراه داخل الصدر.

ومع ذلك فإن صحيفة الإنسان ليست قدراً مغلقاً ما دام حياً؛ فالذي جعل الملائكة تكتب الأعمال شرع التوبة التي تحو أثر الذنب، والحسنات التي يذهبن السيئات، والمظالم التي يمكن ردها قبل يوم الحساب. إن معنى الكتابة لا يريد أن يسجن الإنسان في ماضيه، بل أن يحمله على إصلاحه؛ فرب سطرٍ أسود محته دمعة صدق، ورب خطيئةٍ صارت بعد التوبة باباً إلى انكسارٍ وإخلاصٍ لم يكن صاحبه يعرفهما قبل سقوطه. وليس الشأن ألا يخطئ الإنسان قط، فهذا فوق طبيعته، وإنما الشأن ألا يتخذ من ضعفه وطناً، ولا من سعة المغفرة حجةً للإصرار.

وكم يحتاج الكاتب والمتكلم وصاحب المنبر وكل من تؤثر كلماته في الناس إلى أن يقف طويلاً عند ﴿كَرَامًا كَاتِبِينَ﴾؛ فهو يكتب، ولكن ما يكتبه يكتب عليه أيضاً. يضع الكلمات في كتاب أو صحيفة أو فضاء ينتشر بين الناس، بينما تسجل الملائكة نيته وأثره ومسؤوليته. وقد يعيش النص أطول من صاحبه، فيصبح مما أُنْخِرَ بعد موته؛ فإن حمل نوراً امتد له أجره، وإن زرع فتنة أو اقتراءً ظل يعود عليه من تبعاته. فما أخطر أن يكون القلم شاهداً لصاحبه أو عليه، وما أعظم أن يحول الإنسان إلى صدقة فكرية جارية لا إلى باب مفتوح من التضييل.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾

تختتم هذه الوحدة بقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾. ولم يقل: يعلمون ما تقولون فقط، أو ما يظهر منكم في المجالس، وإنما جاء التعبير عاماً شاملاً للفعل الإنساني الذي يقع محل التكليف. إن علمهم ليس ظناً ولا تخميناً ولا قراءة ناقصة للبلاغ، بل علم بما أمرهم الله أن يحفظوه من أعمال العباد.

والآية تنقل الإنسان من مراقبة صورته إلى مراقبة فعله؛ فالناس غالباً يعلمون ما يظهر، أما الحفظة فيعلمون ما نفعل. قد ينجح المرء في صناعة صورة أخلاقية بالكلمات، لكن الفعل يظل الحقيقة التي تختبر صدقه: ماذا يفعل حين تتعارض المنفعة مع المبدأ؟ كيف يتصرف مع من لا يخشى سلطانه؟ ما خلقه حين يملك القدرة على الانتقام؟ وما أمانته حين يغيب الرقيب البشري؟ هناك تقياس المسافة بين ما يقوله عن نفسه وما هو عليه حقاً.

وفي اختيار ﴿تَفْعَلُونَ﴾ تربية على أن الإيمان ليس شعوراً داخلياً ساكناً ولا بلاغة في وصف القيم؛ بل لا بد أن يصير فعلاً. فالرحمة التي لا تبلغ ضعيفاً، والعدل الذي لا يظهر عند الخصومة، والصدق الذي يتلاشى أمام المصلحة، والتواضع الذي لا يصمد أمام المديح، كلها

معانٍ لم يكتمل صدقها في صاحبها. والملائكة لا تكتب الشعارات التي أحب الإنسان أن يُعرف بها، بل تكتب ما خرج من اختياره إلى واقع العمل.

لكن العمل نفسه مرتبطٌ بالنية التي يعملها الله، وبها تتفاوت قيمته؛ فقد يتشابه فعّالان في أعين الناس ويختلفان عند الله اختلافاً بعيداً. يعطي اثنان، فيعطي أحدهما طلباً لثناء العيون، ويعطي الآخر ابتغاء وجه الله؛ ويصمت اثنان، فيصمت أحدهما حكمةً ورحمة، ويصمت الآخر خوفاً عن قول الحق؛ ويتكلم اثنان بالدين، فيحمل أحدهما همَّ هداية الخلق، ويحمل الآخر شهوة الظهور عليهم. فالمشهد الأخلاقي أعمق من سطح الفعل، والله الذي أمر الملائكة بالكتابة لا تخفي عليه خبيثة القلب.

إن اجتماع الآيات الأربع يرسم بناءً بالغ الإحكام: هناك تكذيبٌ بيوم الدين، لكنه لا يوقف الحفظ؛ وهناك حفظة، لكنهم ليسوا مجهولين في أخلاقهم، بل هم كرام؛ وهم لا يراقبون مراقبةً عابرة، بل يكتبون؛ وكتابتهم لا تقوم على الوهم، بل على علمٍ بما يفعل الإنسان. وهكذا تغلق السورة منافذ الاطمئنان الكاذب: فلا الإنكار يلغي الحساب، ولا الخفاء يلغي الشهادة، ولا مرور الزمن يحو الكُتابة، ولا حسن الصورة يغيّر حقيقة العمل.

غير أن هذه الرقابة، حين يستقبلها القلب بالإيمان الصحيح، لا تحوّل الحياة إلى سجنٍ مظلم، بل تمنحها معنىً وكرامة؛ فالإنسان ليس مخلوقاً مهملاً تبدد أفعاله في الفراغ، وإنما كل خيرٍ يفعله معروف، وكل مقاومةٍ خفيةٍ لهواه محفوظة، وكل ألمٍ صبر عليه بعين الله، وكل كلمة حق قالها في زمن الخوف مكتوبة. وما يبدو في عالم الناس منسياً قد يكون في السماء جليلاً، وما يبدو عندهم جليلاً قد يكون في الصحيفة هباءً إذا خلا من الصدق.

وحين يوقن الإنسان بأن عليه حفظةً كراماً كاتبين، يتحول ضميره من شرطيٍّ يخاف افتضاحه أمام الناس إلى قلبٍ يستحي من الله في السر والعلن. لا يترك المعصية لأن الكاميرا تراه، بل لأن الله يراه؛ ولا يفعل الخير لأنه يريد شاهداً من البشر، بل لأنه يعلم أن الله لا يضيع أجر المحسنين. وهذه هي الحرية الأخلاقية الحقيقية: أن يتحرر الإنسان من عبودية نظرات الخلق، فيستقيم حين يراه الناس وحين لا يرونه، لأن مرجعه لم يعد الصورة الاجتماعية، بل يوم الدين.

فيا أيها الإنسان، إن نسيتَ ما فعلت، فإن الحفظ لم ينس؛ وإن أخفيت، فإن الخفاء لم يُخرجك من العلم؛ وإن طال بين الذنب والحساب زمن، فإن طول الطريق لا يعني سقوط الوصول. وأمامك - ما دمت حياً - فرصةٌ لأن تجعل هؤلاء الكرام يكتبون ما يسرك أن تلقاه: توبةً تحو، ورحمةً تجبر، وعدلاً يقيم، وذكرًا يطهر، وكلمةً تنير، وعملاً خفياً لا يعرفه الناس، لكنه يجيء يوم تبعثر القبور نوراً يمشي بين يديك.

الفصل الرابع

حِينَ يَصِيرُ الْعَمَلُ مَصِيرًا وَيَحِيطُ الطَّرِيقُ بِسَالِكِهِ

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾

بعد أن أثبتت السورة أن على الإنسان حفظةً كراماً كاتبين يعلمون ما يفعل، تنتقل من تسجيل العمل إلى بيان مآله، ومن الصحيفة إلى المصير، ومن فعل الإنسان في زمن الاختيار إلى المقام الذي ينتهي إليه في زمن الجزاء: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾. إنها جملةٌ قصيرة، لكنها تحمل وعداً يتسع لكل ما عجز القلب عن تصويره من تمام الرحمة والرضوان؛ فالذين عاشوا في الدنيا يستقيمون على الحق، ويجاهدون هوى النفس، ويبرون في علاقتهم بالله والناس، لا تذهب أعمالهم في صمت الزمن، بل تنتهي بهم إلى نعيمٍ يليق بكرم الله لا بمحدودية خيال البشر.

وقد اختارت السورة وصف ﴿الْأَبْرَارِ﴾، وهو وصفٌ يجمع سعة الخير وصدق الطاعة واستقامة القلب والعمل. والبرُّ في أصله معنى واسع، كاتساع البر في مقابل ضيق البحر؛ فكأن البارَّ قد خرج من ضيق الأنانية إلى سعة الطاعة، ومن أسر الذات إلى رحابة الإحسان، ومن عبادة المصلحة العاجلة إلى الوفاء بعهد الله. ليس البرُّ مظهرًا واحدًا، ولا شعيرةً معزولةً عن الأخلاق، وإنما هو اجتماع الخير في القلب حتى يفيض على السلوك: صدقًا، ورحمةً، وعدلاً، ووفاءً، وخشيةً، وبذلًا.

والبارُّ ليس إنساناً لم يعرف الضعف، ولم يقع منه نقص، ولم يتعرَّض في سيره؛ فالعصمة ليست لعموم البشر، وإنما هو عبدٌ غلب في حياته معنى الرجوع إلى الله، فإذا أخطأ لم يحوُل خطؤه إلى مبدأ، وإذا زلَّ لم يَبِنْ في موضع الزلة بيتاً يقيم فيه، وإذا رأى الحق لم يمنعه الكبر من العودة إليه. إن الفرق بين البار والفاجر ليس أن أحدهما خُلِق من مادة ملائكية والآخر من مادة مظلمة، بل أن الأول كلها ابتعد أعاد قلبه إلى الطريق، أما الثاني فشَقَّ للانحراف طريقاً واسعاً ثم مضى فيه غير مبالٍ بحدود الله.

والبرُّ يبدأ من صدق الصلة بالله؛ لأن الأخلاق إذا انقطعت عن أصلها الأعلى أصبحت قابلةً للمساومة كلها تغيرت المصلحة. قد يعدل الإنسان ما دام العدل يرفع صورته، ويرحم ما دامت الرحمة لا تكلفه شيئاً، ويصدق ما دام الصدق لا يهدد مكسبه؛ لكن البار يعلم أن الله يراه، وأن الحق لا يفقد قيمته حين يصبح مكلفاً، وأن العمل الذي لا يعرفه الناس قد يكون أثقل في الميزان من عملٍ ملأ صداه المجالس. ولهذا يكون البرُّ امتحاناً لما يفعله المرء حين لا يحني من فعله إلا رضا الله.

وفي كلمة ﴿الْأَبْرَارَ﴾ معنى العلاقة بالآخرين أيضاً؛ فليس البارُّ من يطيل الحديث عن خلاصه الفردي بينما يثقل حياة من حوله بالظلم والجفاء، ولا من يكثر من مظاهر التدين ثم يأكل الحقوق ويؤذي الضعفاء ويخون الأمانة. إن القرب من الله لا يُثرِ قسوةً على خلقه، والعبادة التي لا تهذب اليد واللسان والمعاملة تحتاج إلى مراجعة صدقها. فالبرُّ وجهٌ يتجه إلى الله بالطاعة، ويدُّ تمتد إلى الإنسان بالإحسان؛ وإذا انفصل الوجهان اختل المعنى.

ثم انظر إلى قوله: ﴿لَقِي نَعِيمٍ﴾؛ لم يقل: إن للأبرار نعيماً فحسب، بل جعلهم في النعيم، كأن النعيم عالمٌ يحيط بهم من كل جهة، لا لمسةً عابرة تمر ثم تنقضي. ففي الدنيا قد يملك الإنسان

سبباً من أسباب الراحة ويبقى قلبه محاصراً بالخوف؛ يمتلك المال ويخشى زواله، ويذوق اللذة ويشعر بنهايتها وهي تبدأ، ويجتمع بمن يحب وفي داخله علمٌ بأن الفراق يترىص بكل اجتماع. أما نعيم الآخرة فليس شيئاً يملكه الإنسان ثم يخاف فقده، بل مقامٌ يحتضنه فلا يبلغه موت، ولا يداخله نقص، ولا يعبر فيه شبح الزوال.

والتكثير في ﴿نَعِيمٍ﴾ يفتح المعنى على ما لا تحده العبارة؛ نعيم الجسد من غير مرض، ونعيم القلب من غير خوف، ونعيم الروح بالقرب من الله ورضوانه، ونعيم الصحة التي لا تفسدها خصومة، ونعيم الذاكرة التي لا ينغصها ندم، ونعيم الأمان الذي لا يتربص صاحبه بعده مصيبة. إن كل نعيمٍ في الدنيا يحمل في داخله ظلَّ فئائه، أما نعيم الآخرة فقد نُزعت منه النهاية، ولذلك لا يستطيع خيالٌ تشكّل داخل عالم النقص أن يحيط بكامله.

وهذه الآية تعيد تعريف النجاح. فالناس قد يرون البارَّ محروماً لأنه ترك مكسباً مشبوهاً، أو ضعيفاً لأنه عفا وهو قادر، أو قليل الحيلة لأنه أبى أن يصعد على أكفاف الآخرين؛ لكن السورة تراه سائراً إلى النعيم. وقد يروونه خاسراً حين يفقد شيئاً من الدنيا حفاظاً على دينه، بينما تكون خسارته الظاهرة استثماراً في المصير الباقي. إن الفرق بين ميزان الوحي وميزان الغفلة أن الأول ينظر إلى آخر الطريق، أما الثاني فيفتنه أول المكسب ولو كان بعده هابوة.

ولا يعني هذا أن البار لا يذوق في الدنيا ألماً؛ قد يكون أشد الناس ابتلاءً، وقد يمضي في طريقه مثقلاً بالفقد والمرض والوحشة، لكن في قلبه من أنس الإيمان والرضا والرجاء ما يكون مقدمةً للنعيم الموعود، لا النعيم الكامل الذي لا يكون إلا في الآخرة. فالطاعة قد تشق على الجسد، لكنها تجمع الروح؛ والمعصية قد تلذ للحظة، لكنها تمزق الداخل. ومن هنا يحمل

البر في الدنيا بذور سكينته، كما يحمل الفجور بذور شقائه، وإن تأخر ظهور الثمرتين كاملتين إلى يوم الجزاء.

إن وعد الأبرار بالنعيم ليس دعوةً إلى عبادة الأجر بعيداً عن محبة الله، بل هو تعريف بكرمه؛ فالذي أمر بالطاعة لم يرد أن يستهلك عباده في طريق بلا نهاية، وإنما دعاهم إلى دار كرامته. والله لا يضيع عنده صبر طال، ولا دمة خفيت، ولا شهوة تركها صاحبها له، ولا حق آداه وهو محتاج إليه، ولا عفو تجاوز به جرحه ابتغاء مرضاته. كل ذلك يتحول - بفضل الله ورحمته - إلى نعيم يحيط بصاحبه، فيرى أن ما ظنه في الدنيا حرماً كان باباً إلى عطاء لا ينفد.

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾

في مقابل الأبرار يقف الفجار، وفي مقابل النعيم يقوم الجحيم، فتتضح القسمة التي حاولت الدنيا أن تلمس حدودها بالزينة والخداع. ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾: أولئك الذين تجاوزوا حدود الله، وشقوا ستور الفطرة والحياء، وفتحوا لأنفسهم منافذ إلى الشر حتى لم يعودوا يرون في الحق حاجزاً ينبغي توقيره.

والفجور في أصل معناه يحمل صورة الشق والانبعاث خارج الحد؛ ومنه تفجر الماء حين يشق موضعه ويندفع. فالفاجر لا يقع في زلة منفردة ثم يرجع، بل يميل إلى هتك الحدود التي تحفظ إنسانيته: حد الصدق، وحد العفة، وحد الأمانة، وحد الرحمة، وحد الدماء والأعراض والأموال. وإذا تكرر التجاوز، ضعفت في داخله هيبة الحد، حتى يصبح ما كان يثير خوفه أمراً مألوفاً، ثم ينتقل من ممارسته إلى الدفاع عنه، ومن الدفاع عنه إلى السخرية ممن يرفضه.

وهذه إحدى أخطر سنن الانحراف: أن المعصية لا تبقى فعلاً خارجياً، بل تعيد تشكيل العين التي ترى بها النفس الأشياء. في البداية يعرف الإنسان أن فعله قبيح فيخفيه، ثم يبحث له عن عذر، ثم يختار له اسماً لطيفاً، ثم يصنع حوله خطاباً كاملاً يجعله حقاً، ثم يغضب ممن يذكره باسمه الحقيقي. وهكذا يفجر الذنب حدود اللغة كما فجر قبلها حدود الفطرة، لأن الضمير لا يستطيع أن يقيم طويلاً مع التناقض، فيسعى الهوى إلى تغيير الأسماء بدل تغيير الأفعال.

والمقابلة بين ﴿الْأَبْرَارِ﴾ و﴿الْفُجَّارِ﴾ لا تكتفي بتقسيم الناس، بل تضع كل إنسان أمام اتجاهه؛ لأن المصائر الكبرى تُبنى من اختياراتٍ صغيرةٍ متكررة. ليس الفجور دائماً قفزةً واحدةً إلى الهاوية، بل قد يبدأ بتنازلٍ يراه صاحبه هيناً، ثم يتبعه تنازلٌ آخر، حتى يكشف أن المسافة بينه وبين الحق اتسعت. وكذلك البرُّ قد يبدأ بكلمة صدقٍ في موقفٍ عسير، أو مقاومة نظرة، أو رد مظلة، أو ركعةٍ في جوف الليل، ثم تتجمع الأعمال حتى تصنع القلب اتجاهها.

ثم قالت السورة: ﴿لَفِي بَحْمٍ﴾، فجاءت البنية موازيةً تماماً لقوله: ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾؛ هناك إحاطة النعمة، وهنا إحاطة العذاب. والبحيم نارٌ عظيمة التأجج، لا تشبه نار الدنيا إلا في الاسم الذي يقرب المعنى إلى عقولنا، أما حقيقتها فوق ما يحتمله خيال الإنسان. وإذا كان نعيم الآخرة منزوعاً منه النقص، فإن بحيمها منزوعٌ منه كل ما يخفف آلام الدنيا من غفلةٍ أو نومٍ أو موتٍ ينهي الإحساس.

والقرآن حين يذكر البحيم لا يتلذذ بتعذيب الإنسان، تعالى كلام الله عن ذلك، وإنما ينذره قبل أن يصل، ويفتح له طريق النجاة وهو لا يزال قادراً على الاختيار. إن ذكر النار في

الدنيا رحمة؛ لأن الخطر الذي لا يُحذَّر منه أشدَّ قسوةً، والطبيب الذي يخفي عن المريض مآل دائه ليس أرحم من يصارحه لينقذه. فالوعيد الإلهي ليس باباً إلى اليأس، بل قوة تهز القلب قبل أن يستحكم موته، وتقول للفاجر إن الطريق الذي تمشي فيه ليس قدرك المحتوم ما دمت حياً؛ يمكنك أن تتوقف، وأن تعود، وأن تغسل بالتوبة ما لو لقيت الله مصراً عليه لأهلكك.

ولا يجوز أن يحمل المؤمن هذه الآية سيفاً يوزع به أحكام المصير على الأفراد بغير علم؛ فالله وحده يعلم الخواص والسرائر، وهو أعدل الحاكمين وأرحم الراحمين. إن وظيفة الآية أن تجعل كل إنسان يخاف على نفسه من طريق الفجور، لا أن تمنحه لذة الإشراف المتوهم على مصائر الخلق. ومن علامات الفهم المريض للوعيد أن يقرأه المرء متلذذاً بتطبيقه على خصومه، وينسى أن القرآن يخاطب ضميره قبل أن يصف له غيره.

والحجيم ليس ظملاً يلحق بمن لم يختَر طريقه، بل جزاء قضاءه الله بعد الحجة والعدل، ولا يظلم ربك أحداً. والإنسان حين يصرُّ على الفجور لا يسيء إلى شخصيته وحدها، بل يخرب معنى الإنسانية في نفسه، ويحوّل الحرية التي مُنحها لارتقاء إلى أداة للهدم. والعقوبة الأخروية تكشف الوزن الحقيقي للجريمة بعد أن كانت الدنيا تصغرها بموازينها المختلة؛ فدمعة المظلوم التي لم يلتفت إليها الناس ليست صغيرةً عند الله، والافتراء الذي انتشر في لحظة لا يصبح هيئاً لأنه قيل بالكلمات، والدم الذي أريق من أجل سلطةٍ عابرة لا يبتلع التاريخ وينتهي.

﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾

لا تترك السورة الحجيم معنىً بعيداً غير محدد، بل تربطه باليوم الذي كذبوا به: ﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾. وهنا تظهر المفارقة كاملة؛ فقد كذبوا بالدين، فجاءهم الدين، وغفلوا عن الجزاء،

فصار الجزاء هو الحقيقة التي تحيط بهم، وأنكروا اليوم الذي تُرد فيه الحقوق، فإذا هم يدخلون النار في ذلك اليوم نفسه.

و﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ تدل على ورودهم الجحيم ومقاساتهم حرها؛ فلا تبقى النار خبراً سمعوه ثم أعرضوا عنه، بل تتحول إلى تجربة مباشرة لا يفصل بينهم وبينها خيالٌ أو إنكار. وفي الدنيا يستطيع الإنسان أن يزيح الخبر عن ذهنه، وأن يلهو إذا ذُكر، وأن يسخر من الوعيد، لكن المشاهدة تنهي سلطان التكذيب؛ والمأساة أن اليقين الذي يحصل عندها لا يعود إيماناً نافعاً، لأنه جاء بعد انقضاء زمن الاختيار.

إن يوم الدين هو اليوم الذي تسترد فيه الكلمات معانيها، والأعمال أوزانها، والحقوق أصحابها. في الدنيا قد يسمى العدوان بطولة، والخيانة دهاءً، والجبن حكمةً، والاستبداد حزمًا، والتزلف وفاءً؛ لكن الأسماء المصنوعة لا تعبر إلى الآخرة، وهناك تسقط الصناعة اللغوية التي خبأت الجرائم، ويظهر الفعل عارياً من المساحيق التي وضعها عليه أصحابه. يوم الدين لا يُحاسب الإنسان على الاسم الذي اختاره لنفسه، بل على الحقيقة التي علمها الله منه.

وهو يوم الدين لأن الملك فيه يظهر خالصاً لله، ولأن كل نفسٍ تُدان بما عملت، ولأن العدالة تبلغ تمامها الذي لم تسمح طبيعة دار الابتلاء بظهوره كاملاً. وليس بين الفعل والجزاء يومئذٍ ذلك الفاصل الذي أغرى الإنسان في الدنيا؛ فقد كان يظلم ثم تمر السنوات، فيتوهم أن الصمت الكوني موافقة، وينسى أن الله لا يعجل لعجلة عبادته، وأن تأخير الحكم ليس تردداً ولا عجزاً، بل تقديرٌ إلى أجلٍ معلوم.

وإذا كان الفجار يصلون الجحيم يوم الدين، فإن هذه الآية تعيد للزمن الأخلاقي توازنه؛ فليس كل من نجا اليوم ناجياً، وليس كل من عوقب اليوم هالِكًا، وليس كل من انتصر في

معركة الدنيا محقًا. قد تكون الهزيمة الظاهرة طريقًا إلى رضوان الله، وقد يكون الانتصار المملو بالظلم مقدمةً للانكسار الأبدي. إن آخر المشهد هو الذي يكشف معناه، وسورة الانفطار تنقل بصر الإنسان من لقطةٍ عابرةٍ إلى الخاتمة التي لا تبدل.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾

ثم تأتي هذه الآية لتغلق آخر نافذةٍ من نوافذ الأمل الكاذب: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾. فقد يتوهم متوهم أن ورود الجحيم لحظةً تنتهي، أو أن الغياب عنها يمكن أن يخفف العذاب، فجاء النفي مؤكداً ليقرر دوام الحضور وعدم الإفلات. لا يستطيعون أن يغيبوا عنها بأنفسهم، ولا تستطيع عنهم أن تغيب، فلا مسافة، ولا مهرب، ولا نوم يقطع الإحساس، ولا موت ينهي المقاساة.

إن الإنسان في الدنيا يستطيع أن يغادر موضع الألم، أو يشغل نفسه عنه، أو ينام فيغيب شعوره، أو يحيط نفسه بأصواتٍ تنسيه ما لا يريد مواجهته. بل إن جانباً كبيراً من حياته قد يتحول إلى فنٍّ للهروب: يهرب من نفسه بالضجيج، ومن خطئه بإلقاء اللوم على الآخرين، ومن سؤال المصير بالانهماك في التفاصيل، ومن ونز الضمير بتكرار الذنب حتى يضعف إحساسه به. أما في الآخرة فلا مجال لهذا الغياب؛ لأن العالم كله قد صار عالم الحقيقة، ولم يعد ثمَّ هامشٌ يختبئ فيه الإنسان من نتيجة اختياره.

وفي النفي معنىٌ يتجاوز مجرد المكان؛ فهم لا يغيبون عن النار، كما أن أعمالهم لم تغب عن الحفظ، وكما أنهم لم يغيبوا عن علم الله. لقد حاولوا في الدنيا بناء الغياب: غيَّبوا يوم الدين عن وعيهم، وغيَّبوا حقوق الناس عن حساباتهم، وغيَّبوا رقابة الله عن خلواتهم، لكن ما

غَيَّبَهُ عن شعورهم لم يغيب عن الوجود. ومن هنا تكون الآية خاتمةً عادلةً لمسار الغفلة: الذي عاش يهرب من الحقيقة يجد نفسه في مقامٍ لا يستطيع أن يغيب عنها فيه.

وما أقسى الخلود في نتيجةٍ كان يمكن تجنبها بتوبةٍ صادقة! وما أعجب الإنسان حين يبيع سلامة الأبد بلذةٍ يعرف أنها ستنتضي! إن كل معصية تبدو جذابةً لأنها تعرض نفسها مقطوعةً عن نهايتها؛ تعرض اللذة ولا تعرض الحساب، وتعرض الغلبة ولا تعرض المظلمة، وتعرض المال ولا تعرض السؤال عن مصدره، وتعرض الشهرة ولا تعرض فساد النية. أما القرآن فيعيد وصل الفعل بآخره، حتى لا يرى الإنسان البذرة وينسى الثمرة.

وتضعنا هذه الآيات الأربع أمام حقيقة أن البر والفجور ليسا وصفين عابرين، بل طريقان يصنعان وجهة القلب ويقودان إلى مصيرين لا يستويان. ومع ذلك فإن باب الانتقال بين الطريقين مفتوحٌ في الدنيا؛ فالفاجر يمكن أن يصير بالتوبة من الأبرار، والبار يحتاج إلى الثبات وآلا يغتر بعمله، والقلوب بين أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء. لهذا لا يجوز لأحد أن يأمن على نفسه لماضي صالح، ولا أن يقنط من رحمة الله لماضي مظلم؛ فالعبرة بصدق السير والخاتمة التي يلقي العبد عليها ربّه.

إن البرّ لا يعني أن تحمل صورتك أمام الناس إلى النعيم، بل أن تحمل قلباً صادقاً وعملاً صالحاً ورحمةً بالخلق وافتقاراً إلى الله. والفجور لا يبدأ دائماً بجريمةٍ تهز العالم، بل قد يبدأ بثقبٍ صغيرٍ في جدار الحياة، إن لم يُغلّقه صاحبه اتسع حتى تندفع منه شهوات النفس وتغرق حدودها. لذلك كان المؤمن يحرس البدايات؛ لأنه يعلم أن الطرق الطويلة تبدأ بخطوة، وأن المصائر الباقية قد تُصنع من خياراتٍ بدت في لحظتها صغيرة.

وفي هذا الفصل يتجلى قانون السورة: الأعمال التي كتبها الحفظة لا تبقى حروفاً جامدةً في الصحائف، بل تتحول في يوم الدين إلى حياةٍ تحيط بأصحابها، الأبرار في نعيم، والفجار في جحيم. لقد صار المعنى مكاناً، والاختيار مقاماً، والسريرة عالماً يسكنه صاحبها. وكأن الإنسان كان طوال حياته لا يعمل في الخارج وحده، بل كان يبني - حجراً بعد حجر - الدار التي سينتهي إليها.

فطوبى لمن بنى بيره نافذةً إلى النور، وردَّ مظلمةً قبل أن تتحول إلى نار، وطهر قلبه قبل أن تصبح خبيثته مقامه، وعلم أن الله لا يطلب منه كمالاً لا يطيقه، بل صدقاً يعيده كلما ابتعد، وتوبةً تفتح له الطريق كلما أغلق الذنب في وجهه الأبواب. وويل لمن ظلَّ يهدم حدود الله في نفسه حتى جاء يوم الدين، فإذا ما كان يراه حرةً هو القيد، وما كان يراه لذةً هو الجحيم، وما كان يفر منه بالتكذيب حاضرٌ لا يستطيع عنه غياباً.

يَوْمُ الدِّينِ: حِينَ تَسْقُطُ الْوَسَائِطُ وَيَظْهَرُ الْمَلِكُ لِلَّهِ وَحْدَهُ

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾

بعد أن ذكرت السورة الأبرار في نعيم، والفجار في حجم يصلونها يوم الدين ولا يغيبون عنها، نتوقف عند ذلك اليوم نفسه، وتطرحه على الوعي في صيغة سؤال لا يُراد منه أن ينتظر جواب الإنسان، بل أن يكشف له عجزه عن إدراك الحقيقة إدراكاً يحيط بها: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾.

إن السؤال القرآني هنا لا يستفهم عن اسم اليوم؛ فقد سُيِّ وعُرفت دلالاته العامة، وإنما يهول شأنه، ويوسع في النفس الإحساس بعظمته، ويقول للإنسان: إن ما وصل إليك من خبره حق، لكن حقيقة هوله أكبر من أن تستوعبها مخيلة لم تعش إلا في عالم الدنيا. أنت تتصور الأشياء بما اختبرته حواسك، وتقيس الخوف على ما عرفته من أخطار، وتقيس الألم على ما مرَّ بك من مصائب، أما يوم الدين فعالمٌ تنتهي عنده المقاييس التي ألفتها، وتغير فيه هيئة الكون، وتُكشف فيه السرائر، ويقوم الناس لرب العالمين.

والتعبير بـ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ يقطع الطريق على ذلك الوهم الذي يجعل الإنسان يتعامل مع القيامة كأنها معلومةٌ دينيةٌ استهلكها التكرار. فقد يسمع المرء عن يوم الدين منذ طفولته حتى يألف الاسم، ثم يظن أن ألفه اللفظ تعني الإحاطة بالحقيقة. غير أن بين سماع كلمة «القيامة» وبين الوقوف فيها من المسافة ما بين خبر النار ومباشرة حرها، وما بين وصف

الفقد ووقوعه. والألفاظ التي نستعملها ليست إلا نوافذ تقرب إلى وعينا بعض المعنى، أما الحقيقة الكاملة فلا تتكشف إلا حين يأتي اليوم نفسه.

وهنا تتجلى إحدى آفات المعرفة الموروثة حين لا يحجبها التدبر؛ فالإنسان قد يحمل أخطر الحقائق في أكثر العبارات اعتياداً، فيردها من غير أن تهز بنيانه الداخلي. يقول: الموت حق، والبعث حق، والحساب حق، ثم يخطط ويخاصم ويشتهي ويتكبر كأن هذه الحقائق لا صلة لها بمصيره. لقد بقيت المعلومة في طرف اللسان ولم تنتقل إلى مركز الإرادة، وصار قرب اللفظ حجاً عن بُعد الحقيقة وعظمتها.

ولهذا يعيد القرآن إلى يوم الدين هيبته بالسؤال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ؟﴾ أي شيء في تجاربك المحدودة يستطيع أن يريك حقيقة يوم تنفطر فيه السماء؟ وأي محكمة أرضية تستطيع أن تقرب لك موقفاً يقوم فيه الأولون والآخرون؟ وأي انكشاف عرفته يشبه أن تعرض الصحائف، وتظهر النيات، وتتكلم الجوارح، وتسقط القدرة على التعديل والإنكار والفرار؟

إن يوم الدين ليس يوماً طويلاً بمقدار الزمن وحده، بل هو عظيم بما ينكشف فيه من الحقائق؛ فرب إنسان عاش عمره يظن نفسه صالحاً، فإذا بنيت الداخلية قائمة على طلب الثناء، ورب متهم عاش تحت ركام الافتراء يظهر طاهر الصحيفة، ورب قوي ملأ الدنيا حجباً يقف لا يملك لنفسه شيئاً، ورب ضعيف لم يلتفت إليه أحد يجد صبره محفوظاً وحقه قائماً. إنه اليوم الذي تُعاد فيه كتابة قصة الإنسان، لا بأقلام المنتصرين، ولا بذاكرة الجماهير، بل بعلم الله الذي لم تغب عنه سريرة.

ويوم الدين هو يوم انكشاف قيمة الأشياء أيضاً؛ فالمال الذي تنازع الناس عليه يبقى وراءهم، والمنصب الذي كسروا من أجله القلوب يصبح ذكرى بلا سلطان، والصورة التي

أنفق الإنسان عمره في تليعها تسقط، ولا يبقى إلا ما كان يراه صغيراً: نيةً خالصة، وكلمة عدل، ودمعة خشية، وحقُّ رُدٍّ، وظلمُ ترك، وشهوةٌ فُهرت من أجل الله. هناك يتبين أن الأشياء لم تكن في الدنيا بالقيم التي منحها الناس إياها؛ فالحقائق كانت مختلفةً في أعينهم، لا في ميزان الله.

والسؤال في ذاته رحمة؛ لأن الله لا يترك الإنسان حتى يُفاجأ باليوم من غير إنذار، بل يقرع قلبه به وهو قادرٌ على الإصلاح. وما دام المرء يسمع: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ في دار العمل، فإن أمامه فرصةٌ ليُجعل لهذا السؤال أثراً في حياته: أن يرد المظالم، ويصلح الخلل، ويختبر نياته، ويظهر كلماته، ويخفف ما استطاع من ثقل الصحيفة. أما المعرفة التي لا تنتهي إلى مراجعةٍ فربما أصبحت شاهداً إضافياً على صاحبها؛ لأنه عرف الطريق ثم لم يسر.

﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾

يتكرر السؤال مرةً ثانية، ويسبقه هذه المرة حرف ﴿ثُمَّ﴾، ليزداد التهويل تأكيداً، وليشعر القلب أن محاولةً واحدةً لإيقاظه لم تكن كافيةً أمام كثافة الغفلة التي تغطيه. فالمشهد أعظم من أن يُطرق بابه مرةً ثم يُجاوز، واليوم أخطر من أن يرد ذكره عابراً بين المعاني؛ إنه يحتاج إلى تكرارٍ يهز ما استقر في النفس من وهم الأمان.

والتكرار القرآني هنا ليس إعادةً لا تضيف، وإنما تصعيدٌ للرغبة وتوسيعٌ لمساحة السؤال. السؤال الأول يفتح باب الهيبة، والثاني يدخل بالقلب أعماق فيها؛ وكأن الإنسان حين يسمع الأول قد يظن أنه بدأ يدرك، فيأتي الثاني ليقول له: ثم ماذا أدراك حقاً؟ مهما بلغت صورتك الذهنية، فإن وراءها من الحقيقة ما لم تدركه، ومهما رَقَّ قلبك للحظة، فإن اليوم أجلُّ من أن تستنفد هيئته عاطفةً عابرة.

وكم يحتاج الإنسان إلى التذكير المكرر؛ لا لأن الحقيقة ناقصة البيان، بل لأن الغفلة تتجدد. إن القلب لا ينسى مرةً واحدةً ثم يستيقظ إلى الأبد؛ إنه يتعرض كل يومٍ لغبار الشهوة، وضجيج السوق، وفننة المدح، وقلق الرزق، وصراع المكانة، حتى تتراجع الآخرة في وعيه من حقيقةٍ مركبةٍ إلى فكرةٍ مؤجلة. ولذلك يكرر القرآن؛ لأنه يعالج نسياناً يتكرر، ويعيد للقلب اتجاهه كلها سحبه الدنيا إلى سطوحها.

إن الدنيا تمتلك قوة الإلحاح لأنها حاضرةٌ أمام الحواس؛ المال يُرى، واللذة تُذاق، والمدح يُسمع، والمنصب يفتح الأبواب، أما الآخرة فغيبٌ يطلب من القلب أن يصدّق خبر الله ويجعل غير المرئي أثقل في ميزانه من المرئي الزائل. ومن هنا كان التذكير بيوم الدين تجديدًا للبصيرة التي تقاوم طغيان اللحظة، لا هروباً من الواقع؛ فالذي يؤمن بالحساب أكثر قدرةً على إصلاح الأرض، لأنه لا يبيع الحق حين تتغير موازين القوة، ولا يظن أن فشل العدالة المؤقت يعني سقوطها من الوجود.

ويعلمنا تكرار السؤال أن القلب لا ينبغي أن يتعامل مع الآخرة كمعلومةٍ انتهى منها، بل كحقيقةٍ يعود إليها ليرى حياته في ضوءها. قد يقرأ الآية اليوم فتوقظه من ظلمٍ كان يزينه، ويقرأها غداً فترده عن عجبٍ تسلسل إلى طاعته، ويقرأها بعد تجربة فقد فتجعله يرى الموت بوابةً لا عدماً، ويقرأها عند انتصار خصمه بالباطل فتثبتته بأن المشهد لم ينته. النص واحد، لكن أبواب النفس تتغير، وكل قراءة صادقة تفتح فيه موضعاً جديداً للهداية.

وإذا كانت السورة قد كررت يوم الدين هنا، فإن ذلك يردنا إلى قولها السابق: ﴿كَلاَّ بَلْ تُكْذِبُونَ بِالَّذِينَ﴾. فالداء كان التكذيب بالدين، والعلاج هو استحضار عظمته مرتين، ثم بيان حقيقته في الآية الختامية. إن السورة لا تترك المفهوم مبهمًا، بل تحاصر الغفلة من جوانبها:

تخبرك أن اليوم آتٍ، وأن عملك مكتوب، وأن المصائر متباينة، وأن حقيقة اليوم فوق تصورك، وأنك ستقف فيه منزوع القدرة عما كنت تؤهمه من ملك.

والخوف الذي تبنيه الآية ليس خوفاً عقيماً؛ فالخوف القرآني لا يريد من الإنسان أن يحدق في النهاية حتى يعجز عن الحركة، وإنما أن ينظر إليها فيصح البداية. فإذا جعله ذكر القيامة يائساً من رحمة الله، أو منقطعاً عن عمارة الحياة، أو غارقاً في رعبٍ لا يثر عملاً، فقد اختل فهمه؛ لأن الله الذي خوفه هو الذي دعاه إلى التوبة والعمل والرجاء. الخوف الصحيح حارسٌ للروح، يمنعها من السقوط، والرجاء جناحها الذي يحملها إلى الله، والحبة هي التي تجعل الطريق إليه غايةً لا مجرد نجاةٍ من العقوبة.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾

بعد السؤال المكرر يأتي الجواب الذي يلخص حقيقة يوم الدين: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾. إن هول اليوم لا يمكن في اضطراب الكون وحده، بل في سقوط الملك البشري كله؛ فالإنسان الذي عاش يتبادل المنافع، ويحتمي بالعلاقات، ويتقوى بالجماعة، ويستند إلى المال والجاه والقربة، يقف في يومٍ لا تملك فيه نفسٌ لنفسٍ شيئاً.

وجاءت ﴿نَفْسٌ﴾ نكرةً في سياق النفي لتعم كل نفس؛ فلا تُستثنى نفسٌ لقوتها، ولا لقربتها، ولا لربتها، ولا لما أحاط بها في الدنيا من الأتباع. وجاءت ﴿شَيْئًا﴾ نكرةً كذلك لتستوعب كل شيء؛ فلا تملك نفسٌ أن تمنح أخرى حسنةً من عندها استقلالاً، أو تدفع عنها عذاباً، أو تخفي سيئةً، أو تؤخر حساباً، أو تصنع لها نجاةً خارج حكم الله وإذنه.

هذه الآية تهدم من القلب عبادة العلاقات؛ فالإنسان لا يعيش منفرداً في الدنيا، بل يحتاج إلى غيره، ويتلقى منهم العون والمحبة والنصح، وتلك من نعم الله التي ينبغي شكرها. لكن

الخلل يبدأ حين تتحول الوسيلة إلى معبود، ويصبح رضا المخلوق مقدماً على رضا الخالق، ويبيع المرء دينه ليحفظ علاقةً لن تستطيع أن تحفظه في يوم الدين. فكل من عصيت الله لإرضائه سيقف مثلك فقيراً، وكل من ظلمت لأجله سيعجز عن أن يحمل عنك تبعه ظلمك، وكل من زِنَّ لك الانحراف سيتبرأ من قدرتك على نفعه كما يعجز عن نفعك.

وليست الآية دعوةً إلى قطع روابط الرحمة في الدنيا، بل إلى تحريرها من التأليه؛ أن تحب الناس بالله، وتحسن إليهم امتثالاً لأمر الله، وتنصرهم في الحق لا في الباطل، وتعلم أن محبتك الصادقة لهم لا تكون بأن تعينهم على ما يهلكهم. فالذي يجاري قريبه في الظلم لم ينصره، بل ساعده على بناء حخته عليه، والذي يمدح صديقه بما ليس فيه لم يحبه، بل حبه عن عيبه، والذي يطيع قائداً في معصية الله لم يف له، بل أضاع نفسه وأعانه على الإثم.

وفي الآية هدمٌ لوهم الوساطة المستقلة؛ فلا شفاعة إلا بإذن الله ولمن ارتضى، ولا يملك أحد أن يفرض على الله حكماً أو يتنزع منه قراراً. فالشفاعة الثابتة حق، لكنها لا تناقض انفراد الله بالملك؛ لأنها تقع بإذنه ورضاه، لا على طريقة وساطات الدنيا التي يتغلب بها النفوذ على العدالة. يوم الدين ليس امتداداً لحاكم البشر التي تُشتري فيها المواقف أو تتغير الأحكام بقرب أصحاب السلطة؛ إنه يوم الحكم الإلهي الذي لا يظلم مثقال ذرة.

وقد عاش الإنسان في الدنيا يتوهم أنه يملك: يقول بيقي، ومالي، وجاهي، وأتباعي، وقدرتي؛ وهذه إضافاتٌ معتبرةٌ في حدود الاستخلاف والتعامل، لكنها لا تعني الملك المطلق. فهو يملك ملكاً مؤقتاً محدوداً تحت سلطان الله، لا يستطيع أن يمنع ما يملكه من الزوال، ولا أن يمنع نفسه من الخروج عنه بالموت. وحين تأتي القيامة، يسقط حتى هذا الإذن المؤقت، ويظهر الفقر الذي كان ملازماً للإنسان منذ البداية وإن غطته الأسباب.

إن الطفل يولد لا يملك لنفسه شيئاً، ثم تُوضع في يده الأدوات قليلاً قليلاً، فيتعلم ويكسب ويؤثر، حتى ينسى الحالة الأولى ويظن أن القوة نبتت من ذاته. ثم يأتي الموت فيرد الأشياء إلى أصحابها الجدد، ويخرج الإنسان كما دخل: بلا مالٍ في يده ولا لقبٍ على جسده. أما يوم الدين فيكتمل التجريد؛ فلا يبقى حتى ذلك التعاون الذي عرفه الناس في الدنيا إلا ما أذن الله به، وتقف النفس أمام عملها الذي لا تستطيع نقله إلى غيرها.

وفي قوله: ﴿لَنَفْسٍ﴾ وجعٌ إنسانيٌّ بالغ؛ فقد تكون النفس الثانية أحب الناس إلى الأولى، أمّا أو أباً أو زوجاً أو ولداً أو صاحباً، ومع ذلك لا تملك لها شيئاً استقلالاً. ليس لأن روابط المحبة أصبحت كذباً، بل لأن شدة الموقف استوعبت القدرة كلها، ولأن النجاة لا تُورث بالنسب، ولا تنتقل بالعاطفة، ولا ينوب فيها أحدٌ عن أحد. لقد كان الحب في الدنيا مطالباً بأن يهدي وينصح ويدعو ويعين على البر؛ فإذا ضُيعت فرصة العمل، لم يبق يوم الجزاء مجالاً لبناء ما لم يُبنَ.

وهذا المعنى يعيد تعريف مسؤوليتنا تجاه من نحب: ليس الحب أن نوفر لهم راحة اللحظة ولو خسروا المصير، ولا أن نصمت عن خطئهم حتى لا تغضب العلاقة، بل أن نحب لهم النجاة كما نحبها لأنفسنا، برفقٍ وحكمةٍ وصدق، من غير استعلاء ولا قسوة. فما دام اليوم لم يأت بعد، تملك النفس لنفسٍ أشياء كثيرةً بإذن الله: نصيحةً، ودعاءً، وتعليماً، وإغاثةً، وردّاً عن الظلم، وفتحاً لباب التوبة. أما إذا جاء يوم الدين، انتهى زمن التأثير وبدأ زمن النتيجة.

﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾

هذه هي خاتمة السورة، والكلمة التي تصب فيها مشاهدتها كلها: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾. انفطرت السماء بأمره، وانتثرت الكواكب بأمره، وُجِّرت البحار بأمره، وُبعثت القبور

بأمره، وعلت النفوس أعمالها تحت حكمه، وكتب الحفظة ما كتبوا بأمره، ودخل الأبرار النعيم برحمته، وصلى الفجار الجحيم بعده؛ ثم انكشف أن الأمر كله له.

وليس معنى الآية أن الأمر لم يكن لله في الدنيا ثم صار له يوم القيامة؛ فالأمر لله أولاً وآخرًا، ظاهراً وباطناً، ولم يخرج شيء عن ملكه لحظة واحدة. وإنما امتازت الدنيا بوجود أسبابٍ ومليكاتٍ واختياراتٍ أذن الله بها امتحاناً لعباده، فاغتر الإنسان بالستار، ونسب التأثير إلى الوسائط استقلالاً، ورأى أيدي الملوك تتحرك فظن أنها تملك مصائر الوجود. أما يوم القيامة فتسقط الأستار، وتتعطل دعاوى الاستقلال، ويظهر للجميع ما كان المؤمن يعلمه في الدنيا: أن الأمر لله وحده.

إن الإنسان يرى في الدنيا أوامر كثيرة: أمر السلطة، وأمر المال، وأمر المجتمع، وأمر الشهوة، وأمر الخوف، وقد تتزاحم عليه حتى ينسى الأمر الأعلى الذي تُوزن به الأوامر كلها. فن أطاع مخلوقاً في معصية الخالق، فقد منحه في قلبه من السلطان ما لا يملك؛ ومن غير الحق خوفاً على مكانته، فقد تصرف كأن أمر رزقه ومصيره بيد الناس. ثم يأتي يوم الدين فيرى أن الذين خافهم كانوا مثله لا يملكون شيئاً، وأن ما تنازل عنه من أجلهم بقي في صحيفته، بينما ذهبت قدرتهم على نفعه.

والإيمان بأن الأمر لله لا يصنع إنساناً سلبياً يعتزل الأسباب، بل يحمره من عبادتها. إنه يعمل لأنه مأمور، ويخطط لأنه مستخلف، ويقاوم الظلم لأنه مسؤول، لكنه لا يبيع روحه للنتيجة، ولا يظن أن فوات سببٍ يعني انغلاق خزائن الله. يأخذ بالوسيلة وقلبه مع رب الوسيلة، ويشكر الناس على معروفهم من غير أن يرفعهم إلى مقام المنعم الأول، ويواجه

القوى الأرضية من غير أن يراها مطلقاً؛ لأنها كلها تتحرك داخل ملك الله وتنتهي عند أجله.

وفي هذه الخاتمة طمأنينةً للمظلومين بقدر ما فيها تهديدٌ للظالمين. فالظالم قد يحتكر الأمر في زاويةٍ صغيرةٍ من الدنيا، ويمنع الكلام، ويزور الحقيقة، ويطارد الشهود، لكنه لا يستطيع أن ينقل سلطانه إلى يوم الدين. ستسقط أدواته عند حافة القبر، ويقف أمام من يعلم ما فعل، في يومٍ لا مال فيه يشتري به الصمت، ولا قوة تغلب الحكم، ولا جمهور يصنع له صورةً بديلة. أما المظلوم الذي انقطعت به الأسباب، فليس حقه معلّقاً بذاكرة التاريخ وحدها؛ إن أمره عند الله الذي لا ينسى ولا يعجز.

وفيها كذلك شفاءٌ للقلق الذي ينهش الإنسان حين يتوهم أن أمر حياته موزعٌ بين أيدي الخلق. ليس معنى التوكل أن تضمن أن الأحداث ستجري دائماً وفق رغبتك، بل أن تعلم أنها لا تخرج عن علم الله وحكمته، وأنت عبدٌ مأمورٌ بالسعي لا ربٌّ مطالبٌ بالسيطرة على كل نتيجة. ما عليك أن تستقيم في موضعك، وأن تبذل وسعك، وأن ترد الأمر إلى صاحبه؛ فإذا تأخر الفرج لم ينقطع رجائك، وإذا أغلقت أبواب الناس لم تظن أن الباب الأعلى قد أغلق.

وهكذا تنتهي السورة بإعلان الملك بعد أن بدأت بانهيار المملوكات. في أولها سماءٌ تنفطر، وفي آخرها أمرٌ ثابتٌ لله؛ كواكب تنثر، وبحار تُفجّر، وقبور تُبعثر، ونفوسٌ تفقد قدرتها، بينما يبقى سلطان الله لا يلحقه زوال. كل شيءٍ في السورة يتحرك ويتغير ويتكشف، إلا الحقيقة العليا التي كانت وراء كل حركة: الأمر لله.

وهنا يصل الخطاب إلى غايته: يا أيها الإنسان، لا تغتر لأنك لم تكن مالكاً مستقلاً قط؛ خلقك الله، وسوّاك، وعدّلك، وركّبك، وأمهلك، وحفظ عملك، وسبيعتك، ثم تقف في يوم يظهر فيه ما كان ينبغي أن تعرفه في الدنيا. فإن عشت الآن والأمر لله في قلبك، هان عليك أن تخرج من أوهام السيطرة، وأن تعبد الله وحده، وأن تضع كل قوة في قدرها. أما إن عشت نازعاً الأمر إلى نفسك أو إلى غيرك، فستأتيك الحقيقة بعد فوات زمن الاختيار.

إن المؤمن لا ينتظر يوم القيامة ليعلم أن الأمر لله؛ بل يجعل هذه الحقيقة نور يومه الحاضر. يقولها حين يخاف، فلا يستعبد قلبه لمخلوق؛ ويقولها حين يرزق، فلا ينسب الفضل إلى نفسه؛ ويقولها حين ينجح، فلا يطغى؛ ويقولها حين ينكسر، فلا ييأس؛ ويقولها حين تتعقد الأسباب، فلا يفقد يقينه؛ ويقولها حين تدعوه الشهوة إلى تجاوز الحد، فيذكر أن الجسد الذي يشتهي لمخلوق، وأن العمل مكتوب، وأن المصير آتٍ، وأن الأمر في البدء والختام لله. وبهذه الآية الأخيرة تنطفئ ضوضاء الادعاء، ويسقط وهم الملك، ويقف الإنسان في مقامه الحقيقي: عبداً بين يدي ربه. وليس هذا المقام إهانةً له، بل هو كرامته الكبرى؛ فما أهانه شيءٌ كما أهانه أن يتعبد للمخلوق، وما حرره شيءٌ كما حرره أن يعلم أن الأمر لله. فإذا صار قلبه لله، لم تعد الدنيا قادرةً على شرائه، ولم يعد مدح الناس يرفعه، ولا ذمهم يهدمه، ولم تعد خسارة العابر تُنسيه الباقي.

لقد بدأت السورة بسقف العالم وهو ينشق، وانتهت بسقف الوهم وهو يسقط؛ بدأت بانفطار السماء، وانتهت بانكشاف الملك؛ وبينهما وقف الإنسان أمام خلقه وغروره وعمله وحفظته ومصيره. وكأن السورة كلّها تقول له: ما دام ذلك اليوم لم يأت، فارجع بالأمر إلى الله اختياراً، قبل أن تراه الله اضطراراً؛ واعبده بالغيب قبل أن تتكشف الحقيقة

مشاهدةً، واكتب في صحيفتك ما تحب أن تقرأه، قبل أن ينتهي زمن الكتابة ويبدأ زمن
الجزاء.

حِينَ يَنْفَطِرُ الْعَالَمُ وَلَا يَبْقَى لِلْإِنْسَانِ إِلَّا حَقِيقَتُهُ

هكذا تنتهي سورة الانفطار، ولكن أثرها لا ينتهي عند آخر آية؛ لأنها لا تأخذ القارئ في رحلة إلى نهاية العالم لتتركه هناك، بل تعيده إلى بدايات نفسه، إلى ذلك الموضع الخفي الذي تنشأ فيه النية قبل أن تصير فعلاً، ويولد فيه الغرور قبل أن يتحول إلى عصيان، ويتكون فيه صورة الإنسان الباطنة قبل أن يلقاها مكتوبةً في يوم الدين. إنها سورة تهدم العالم في مشهدها الأول لكي تعيد بناء الوعي في قلب قارئها، وتُريه زوال الأشياء الكبرى حتى لا يستهين ببقاء أعماله الصغيرة، وتفتح أمامه السماء وهي تنفطر ليكتشف أن أشد ما يحتاج إلى الانفطار هو غلاف الغفلة الذي انعقد حول قلبه.

بدأت السورة بالكون حين يفقد صورته التي ألّفناها: السماء تنشق، والكواكب تنتثر، والبحار تتفجر، والقبور تبعثر؛ وكل مشهدٍ منها ينتزع من الإنسان دعامةً من دعائم أمانه الوهمي. فالسماء التي جعلها رمزاً للثبات لا تثبت، والكواكب التي حسبها معلقةً في مواقعها لا تبقى، والبحار التي حدّتها الشواطئ تخرج عن حدودها، والقبور التي ظننا أبواباً أغلقت إلى الأبد تُفتح وترد ما فيها. وكأن السورة تطوف بالإنسان على الأشياء التي حسبها راسخة، ثم تلسسها واحدةً واحدةً، فإذا هي مؤجلة الانهيار إلى كلمةٍ من الله.

ووسط هذا الانقلاب الكوني الشامل، لا تضع النفس في الزحام، بل تبرز وحدها أمام عملها: ﴿عَلَيْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾. هنا تجلّي المفارقة التي يقوم عليها بناء السورة كله: الكون العظيم يتفكك، والعمل الذي استصغره صاحبه يبقى؛ السماء تزول، والكلمة

محفوظة؛ الكواكب تنتثر، والنية لا تضيع؛ البحار تُفجّر، والأثر الذي تركه الإنسان وراءه يعود إليه؛ القبور تُبعثر، والسرائر تستيقظ من صمتها الطويل. فما كان كبيراً في العين يصغر أمام أمر الله، وما كان صغيراً في ضمير الغافل يكبر حين يوضع في ميزان الجزاء.

وما أرهف انتقال السورة من مشهد انفطار السماء إلى سؤال انفطار القلب: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾. إنه السؤال الذي لا يستطيع الإنسان أن يمرّ به من غير أن يرى نفسه، ولا أن يجيب عنه بإلقاء التبعة كلها على الشيطان أو المجتمع أو الظروف؛ لأن السورة تستدعيه باسمه الإنساني، وتضعه أمام ربه، وتسأله عن الخديعة التي قبلها في أعماقه حتى عاش بنعمة الله بعيداً عن أمره.

لم يكن الذي غرّه أقوى من الله، ولا أكرم منه، ولا أرحم، ولكنه كان أقرب إلى شهوته وأعجل وعداً لمصلحته. غرّه أن العقوبة لم تنزل بعد أول ذنب، وأن الستر امتد بعد تكرار الزلة، وأن الرزق لم ينقطع حين أعرض، فتوهم أن المهلة إهمال، وأن الحلم عجز، وأن الكرم الإلهي باب مفتوح للمتماذي. ولم يفهم أن الكريم يستره ليعود، ويمهله ليستدرك، ويذكره قبل أن يحاسبه، ويفتح له أبواب التوبة لأنه لا يريد له الهلاك.

إن أوجع ما في السؤال أن العتاب جاء باسم ﴿الكَرِيمِ﴾؛ فما عصى الإنسان ربّاً لم يعرف منه إلا القهر، بل عصى من خلقه حين لم يكن، وسوّاه حين لم يملك تسوية نفسه، وعدّله في أحسن نظام، وركّبه في الصورة التي شاء. لقد أحاط به الكرم قبل أن يعرف معنى الطلب، وسرى في جسده قبل أن يعرف اسم النعمة، وحمله في ضعفه، وحفظه في غفلته، ثم جعل الإنسان من دوام الإحسان ستاراً يحجبه عن المحسن.

تردُّ السورة الإنسان إلى جسده، لا ليغتر به، بل ليقراً فيه وثيقة افتقاره. فالعين التي يبصر بها لم يخلق نورها، والقلب الذي ينبض في صدره لا يملك له استمراراً، والعقل الذي يفكر به لم يصنع مادته، واللسان الذي يعبر به عن نفسه كان يوماً عاجزاً عن حرف واحد. إن الإنسان يسكن معجزةً ثم ينساها لأنها تتكرر، ويحمل في تكوينه آلاف الشواهد على العناية، ثم يبحث عن حجة تبرره الاستغناء. ولو أنصف، لرأى أن كل عضو فيه يقول له بصمت: أنت مخلوق، وإن المخلوق لا تكتمل حريته إلا حين يعرف خالقه.

ثم تكشف السورة أن الغرور ليس حادثةً سطحية، بل ينبت من خللٍ عميق في اليقين: ﴿كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾. وقد لا يكون التكذيب إنكاراً صريحاً يعلنه اللسان؛ فرب مؤمنٍ بالآخرة في عقيدته يعيش غافلاً عنها في موازينه. يقول إنها حق، لكنه إذا خاصم نسي الحساب، وإذا خلا نسي الرقابة، وإذا امتلك القوة نسي العدل، وإذا استدعته المصلحة أخر ما يعرفه من الحق. كأن يوم الدين حقيقةً تصلح للتلاوة ولا تصلح لتوجيه القرار، أو خبرٌ ينتظر الإنسان في آخر الطريق ولا ينبغي أن يتدخل في الطريقة التي يمشي بها إليه.

غير أن الآخرة لا تصبح حقاً حياً في القلب حتى تُعيد ترتيب الدنيا أمامه. من أيقن بالحساب لم يعد الربح عنده كل ما دخل يده، ولا الخسارة كل ما خرج منها؛ فقد يربح المرء مالاً ويخسر نفسه، وقد يفقد منفعةً ويحفظ دينه، وقد يمر بالناس مجهولاً ويكون في السماء معروفاً، وقد تصعد صورته في الأرض بينما تهوي منزلته عند الله. إن يوم الدين يحرر الإنسان من الاستبداد العاجل للنتيجة، ويمنحه بصيرةً يرى بها آخر الطريق وهو لا يزال عند أوله.

ولأن الإنسان ينسى ما مضى من عمره، أخبرته السورة أن النسيان لا يعني الضياع: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ يَكْتُبُونَ كِتَابَكُمْ﴾. ما أكثر الكلمات التي غادرت ذاكرة قائلها وبقيت جراحاً في صدور سامعيها، وما أكثر المواقف التي نسيها أصحابها ولم ينسها الذين انكسروا بها، وما أكثر الخير الذي مرَّ في الدنيا هادئاً لا يعرفه أحد، لكنه استقر في صحيفة لا تضيع. إن الملائكة لا تكتب ضجيج الأفعال، بل حقائقها، ولا تخدعها الصورة التي صاغها الإنسان لنفسه، ولا تنقص من الخير لأنه خفي، ولا تصغر من الشر لأنه شاع بين الناس حتى ألفوه.

وحين يتذكر المؤمن هؤلاء الكرام الكاتبين، لا تتحول حياته إلى رعبٍ مغلق، بل إلى يقظةٍ كريمة؛ لأنه يعلم أن مقاومته الخفية محفوظة، وأن دمعة الدم مكتوبة، وأن الكلمة التي جبر بها قلباً لن تضيع، وأن التوبة تستطيع - برحمة الله - أن تطهر ما لو بقي لأثقله. إن الكتاب لم يُحتم بعد ما دام حياً؛ ولا تزال أمامه مساحةٌ يكتب فيها استغفاراً بعد الذنب، وإصلاحاً بعد الإفساد، ورداً للحق بعد المظلمة، ونوراً يحو به ظلام الطريق.

ثم تنقسم المصائر بوضوح لا تترك معه السورة مساحةً لتتبع الفارق بين الحق والباطل: ﴿وَإِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾. فالبر والفجور ليسا أسماءً تلصق بالناس اعتباراً، بل اتجاهان يتشكلان بالاختيار، وطريقان يحمل كل منهما في باطنه مقدمات نهايته. البار يجاهد اتساع الخير في نفسه حتى يفيض على عبادته ومعاملته، والفاجر يشق حدود الفطرة حتى تصبح المعصية طريقاً مألوفاً، ثم موقفاً يدافع عنه، ثم هويةً يخشى أن يعود عنها.

وليس بين الطريقين جدارٌ لا يعبره أحدٌ في الدنيا؛ فقد يفتح الله لفاجرٍ باب توبةٍ فيرجع حتى يطهر قلبه، وقد يغتر صاحب طاعةٍ بعمله فيُفتن من حيث ظن أنه آمن. لذلك لا تمنح السورة أحداً حق الاطمئنان إلى اسمه أو تاريخه، بل ترده إلى اتجاهه الحاضر وخاتمه التي لا يعلمها إلا الله. النجاة ليست في أن ترى نفسك من الأبرار، وإنما أن تظل مفتقراً إلى الله، خائفاً من زيف القلب، راجياً رحمته، عاملاً بما يصدق الرجاء.

إن الإنسان، في الحقيقة، يبني بعمله العالم الذي سيحيط به؛ فالبرُّ لا يبقى حركةً انتهت، بل يعود نعيماً، والفجور لا يبقى لذّةً انقضت، بل يعود جحيماً. كأن الأعمال بذورٌ أخروية يودعها المرء تراب أيامه، ثم ينساها حتى يجيء موسم الحصاد، فإذا كل بذرةٍ قد أخرجت حقيقتها. ولذلك كان من أعظم الخداع أن يحكم الإنسان على الفعل من لحظته الأولى؛ فالمعصية تعرض لذتها وتخفي نارها، والطاعة تعرض لمشقتها وتخفي نعيمها، والإيمان وحده هو الذي يمد البصر إلى الثمرة فلا يفتنه بريق البذرة.

ثم يتكرر السؤال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ثمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿﴾، كأن المرة الأولى لم تكفٍ لإيقاظ قلبٍ أثقلته الدنيا، وكأن السورة تريد أن تنتزع اسم ذلك اليوم من اعتياد اللسان وتعيده إلى رهبة الحقيقة. لقد سمع الإنسان عن القيامة كثيراً حتى أصبح الاسم مألوفاً، لكن المألوف لفظها لا حقيقتها؛ فأبي خيالٍ يستطيع أن يتصور يوماً تسقط فيه جميع الصور التي حكمت الحياة، ويرى الإنسان نفسه كما هي، لا كما رواها للناس ولا كما أحب أن يصدقها؟

يوم الدين هو اليوم الذي تنتهي فيه قدرة اللغة المراوغة على تبديل أسماء الأشياء؛ فلا يستطيع الظالم أن يسمى بطشه حزماً، ولا المرأى أن يسمى شهوته إلى المدح دعوةً، ولا الخائن أن

يسمي غدره ذكاءً، ولا الجبان أن يجعل صمته عن الحق حكمة. هناك تعود الأفعال إلى أسمائها الأولى، وتسقط عنها الثياب التي خاطها الهوى، ويقرأ الإنسان تاريخه في ضوء علم الله، لا في ضوء الرواية التي كان يواسي بها ضميره.

ثم تختصر الآية الأخيرة حقيقة ذلك اليوم كله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾. تسقط الشبكة التي توهم الإنسان أنها تحمل مصيره: لا مال يشتري النجاة، ولا نسب ينقل العمل، ولا صديق يمنح من عنده حسنة، ولا جمهور يغطي الحقيقة، ولا سلطة تفرض على عدل الله استثناءً. يقف الجميع فقراء كما كانوا منذ البداية، غير أن الأسباب في الدنيا سترت فقرهم، أما الآخرة فتزيل الستر وتظهر الحقيقة.

وليس هذه الآية إلغاء لقيمة المحبة بين الناس، بل تصحيحٌ لوظيفتها؛ فما دامت الدنيا قائمةً تستطيع نفسٌ لنفسٍ أشياء كثيرة: أن تهديها كلمة، وتمنعها من ظلم، وتردها إلى الله، وتدعو لها، وتغيث ضعفها، وتعينها على البر. أما يوم الدين فينتهي زمن التأثير ويبدأ زمن الحصاد. ولذلك فإن الحب الصادق ليس أن نترك من نحب في الطريق الخطأ محافظةً على راحته العاجلة، بل أن نرحمه من مصيرٍ لا نستطيع أن نملك له فيه شيئاً.

وأما قوله: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ فهو النور الأخير الذي يصبغ السورة كلها؛ فالأمر لم يكن يوماً غير الله، لكن الدنيا امتلأت بالأسرار والادعاءات: ملكٌ يظن أن التاريخ بيده، وغنيٌ يظن أن الأرزاق من خزائنه، وجمهورٌ يتوهم أن الحقيقة تُخلق بكثرته، وإنسانٌ صغيرٌ يظن أن مفاتيح مستقبله كلها في قبضته. ثم يأتي اليوم الآخر، فلا يمنح الله نفسه ملكاً جديداً، تعالى عن ذلك، وإنما يكشف الملك الذي لم يخرج عنه شيء قط.

وهنا تلتقي خاتمة السورة ببدايتها: لأن الأمر لله انفطرت السماء حين أمرها، وانتشرت الكواكب حين انتهى أجل انتظامها، وتفجرت البحار حين رفعت حدودها، وبُعثت القبور حين نودي أهلها للخروج. ولأن الأمر لله حُفظت الأعمال، وقامت الموازين، وتباينت المصائر، وعجزت النفوس عن امتلاك شيءٍ لنفسٍ أخرى. فما من مشهدٍ في السورة إلا وهو أثرٌ من آثار هذه الحقيقة الختامية: الأمر لله.

ومن عرف في الدنيا أن الأمر لله لم ينتظر انشقاق السماء حتى يخضع له؛ بل ردَّ إليه أمره وهو يملك الاختيار، وأسلم له قلبه قبل أن تسقط دعاوى الملك، وعبدته بالغيب قبل أن تصير الحقيقة شهادةً لا ينفع عندها استئناف الإيمان. يعرف أن الأسباب مأمورٌ بها، لكنها ليست آلهة؛ وأن السعي عبادة، لكنه لا يخلق النتائج؛ وأن الناس قد يفتحون باباً، لكنهم لا يملكون خزائن الله؛ وأن الدنيا قد تنزع منه أشياء كثيرة، لكنها لا تستطيع أن تنزع منه الله إذا ظل قلبه متعلقاً به.

إن سورة الانفطار لا تريد أن تجعل الإنسان عدواً للحياة، بل أن تحرره من الاغترار بها؛ ولا تريد أن تصغّر الكون في عينه، بل أن تجعله يعبر من عظمته إلى عظمة خالقه؛ ولا تريد أن تثقل قلبه بالخوف وحده، بل أن توقظه قبل أن تنتهي فرصة التوبة. فهي سورة إنذار، لكن الإنذار فيها محاطٌ بالكرم؛ وسورة حساب، لكن الحساب يسبقه إمهالٌ طويل؛ وسورة مصير، لكنها تُبلى في الدنيا كي يستطيع الإنسان أن يغيّر طريقه قبل الوصول.

فيا أيها الإنسان، إذا كانت السماء نفسها ستنفطر، فلا تجعل قلبك أصلب منها عن الخشوع؛ وإذا كانت الكواكب ستنتثر، فلا تجمع شتات الدنيا في صدرك كأنها باقية؛ وإذا كانت البحار ستُفجّر، فلا تظن أن أسراركَ ستظل خلف شواطئها؛ وإذا كانت القبور ستُبْعَث، فلا

تحسب أن الموت يحو القضية؛ وإذا كانت أعمالك محفوظة، فلا تستصغر خيراً ولا شراً؛ وإذا كان الأمر لله، فلا تمنح نفسك ولا أحداً من خلقه ما ليس له من الملك.

دع السورة تُحدث انفطارها فيك قبل أن يقع الانفطار الأكبر؛ أن تشق قشرة الغفلة عن عين البصيرة، وتبعثر قبور المعاني التي دفنتها تحت ركام العادة، وتفجر في قلبك ينابيع التوبة، وتثر أمامك زينة الدنيا حتى تراها في حجمها الحقيقي. فليس الناجي من عرف كيف سينهار العالم فحسب، بل من عرف كيف يبني قلبه في عالم سينهار، وكيف يودع في أيامه عملاً لا ينهار معه.

وعندما تغلق سورة الانفطار آخر أبوابها، لا تترك أمام الفراغ، بل أمام الله؛ فلا السماء بقيت، ولا الكواكب، ولا البحار، ولا القبور، ولا دعاوى النفوس، وبقيت الحقيقة التي كانت قبل الأشياء وستبقى بعدها: أن الله هو الأول والآخر، وأن الخلق إليه راجعون، وأن الكرم الذي أمهلهم هو الذي دعاهم، وأن العدل الذي سيحاسبهم لا يظلمهم، وأن الرحمة التي أنزلت إليهم هذا القرآن أرادت لهم أن يستيقظوا قبل أن يأتي يومٌ لا تنفع فيه اليقظة.

فطوبى لمن قرأ السورة فسمع وراء انفطار السماء نداءً إلى قلبه، وسمع وراء سؤال الغرور عتاباً يعيده، وسمع وراء كناية الأعمال دعوةً إلى تطهير الصحيفة، وسمع وراء النعيم والجحيم حقيقة الطريقين، ثم خرج من السورة وقد استقر في أعماقه يقينٌ لا تبدده تقلبات الحياة:

أن العالم كله مؤجلٌ إلى انفطار، وأن العمل محفوظٌ إلى لقاء، وأن الإنسان مفتقرٌ في البدء واختتام، وأن النجاة ليست في كثرة ما يملك، بل في صدق ما يقدم، وأن الأمر كان لله، ولا يزال لله، وسيظهر يوم الدين أنه لم يكن قط لغير الله.